د. مصطفى عبد الغنى

حقيقة الغرب

بين الحملة الفرنسية والحملة الأمريكية

طبعة خاصة يصدرها



ضمن مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١
مكتبة الأسرة



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١
مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الخاصة)

حقيقة الغرب
بين الحملة الفرنسية والحملة الأمريكية
د. مصطفى عبدالغنى

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : **محمود الهندى**
المشرف العام :
د. سمير سرحان

الجهات المشاركة :
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة الإدارة المحلية
وزارة الشباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

حقيقة الغرب

بين الحملة الفرنسية
والحملة الأمريكية

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى : المجهول لا يزال

التقنية : ألوان زيتية على سلويتكس

منير كنعان (١٩١٩ - ١٩٩٩)

- فنان مصرى ولد فى القاهرة ، ويعد من أوائل التجريد الأوائل .
- عمل كفنان صحفى ، فابتكر أول لوحة تجريدية له فى ١٩٤٥ ، وأول لوحة كولاچ فى ١٩٥٣ ، وهو من أول المجددين الدائمين فى الفن التشكيلى .
- حاز على الجائزة الأولى (تصوير) فى أول بينالى عربى دولى ، وحصل على جائزة الدولة التقديرية فى الفنون ١٩٩٦ ، أقام وشارك فى العديد من المعارض المحلية والدولية : بينالى ساو باولو بأمريكا اللاتينية ، وبينالى البندقية ، ومتحف الشعب بألمانيا ، وباريس ، له مشروع جداريات مطار جدة الدولى ، وبينالى الرياض الدولى بأسبانيا ، وجدارية الأكاديمية المصرية بروما ، وهو فنان قدير استطاع تصوير الملاحم الشعبية مسجلاً مناظر القرية والمدينة والإنسان والحيوان والنيل والبحر والمساجد والأسواق والمقاهى والأعياد والموالد والسيرك والحروب والمجاذيب فى تشكيلات غاية فى الروعة .

يضاف إلى ذلك تميزه فى رسم صفحات المنتصف لسنوات عديدة بمجلة آخر ساعة .

محمود الهندى

على سبيل التقديم:

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً وبسعر فى متناول الجميع ليشبع نهمه للمعرفة دون عناء مادى وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تتربع فى صدارة البيت المصرى بثراء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخاً تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء). وتنضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» فى (٢٠ جزء).. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

د. سمير سرحان

إهداء :

إلى

سليمان الحلبي

شهيد الحملة الفرنسية

وإلى

أطفال بحر البقر وملجا العامرية وقانا و ..

وانتفاضة الأقصى

شهداء الحملة الأمريكية

لزوم مايلزم

ها نحن نحتفل هنا - والآن -

بعام الجلاء (١٨٠١ - ٢٠٠١)

بعد أن خدعونا طويلاً

بعام الغزو وضراوته (١٧٩٨ - ١٩٩٨)

هذه حقيقة الغرب وأقنعته أيها السادة ..

مقدمة

وجوه كثيرة للغرب ..!؟

الوجوه الكثيرة ، حقيقية .. بشعة وقبيحة نلتقى بها منذ عرفنا هذا الغرب حين جاء على مدافع بونابرت (وليس مطبعته كما يزعم البعض - وما أكثرهم -) فى نهاية القرن الثامن عشر ، وتوالت فى صور شوهاء حادة جافة بدت فى ذروة اكتمالها مع نهاية القرن العشرين حيث نعيش جميعاً محاولة الغرب لإعادة رسم خارطة الكرة الأرضية بطريقته الخاصة . بطريقة اقتصاد السوق

ليس بطريقة الحضارة أو الديموقراطية أو حقوق الإنسان .. إلخ كما يزعم.

وتتعدد الوجوه ..

فهذا هو وجه (النظام العالمى الجديد) بتعبير جورج بوش عقب حرب الخليج الثانية ٩٠ / ٩١م للهيمنة على العالم و "أمركته" .

وهذه هى لوحة (نهاية التاريخ) بتعبير فرانسيس فوكوياما حين حاول أن يراوغنا من شرفة وزارة الخارجية الأمريكية بألوانه وتنظيراته البراقة .

وهذا هو "كروكى" (صراع الحضارات) لصمويل هنتنجتون الذى خرج لأول مرة من «فورن أفيرز Foreign Affairs» مجلة الشئون الخارجية الأمريكية قبل أن يعود العام الماضى - ١٩٩٦ - لتجسيد خطوطه فى كتاب ضخم حاول به التأكيد على وجود العدو الحقيقى للغرب وهو كما رآه ونظر له - فى الإسلام .

إنها وجوه كثيرة دالة ترسم خلفها جميعاً صورة هذا الغرب الذى يحاول أن يخدعنا ، فيزيد من قبضته علينا ، مردداً عباراته التى لا تخلو من معنى (العولمة) وحوار الحضارات و (الكونية) و (الكوكبية) و (الحداثة) و (ما بعد الحداثة) .. إلخ .

الغرب الجزار .. نعم .. إنها حقيقة الغرب كما نراها على غلاف هذا الكتاب .. الجزار الذى لا يتردد فى استخدام (الخازوق) مرات كثيرة فى علاقاته بأبناء الدول الأخرى من المعترضين أو المناوئين لحكمه وإرهابه ، وهى تأتى كلها على شكل شهادات على حقيقة الغرب .

ولنقرأ هذه الشهادات بأعصاب قوية ، لنرى ، حقيقة الغرب كما يجب أن نعرفها .

الشهادة الأولى :

حين حمل الغرب الفرنسى سليمان الحلبى المناضل الكبير ابن سوريا إلى الخازوق فى مصر المحتلة (وهو ما رسموه لنا بيد فنان فرنسى على صورة الغلاف) ..

كان المناضل العربى قد اغتال أحد جزارى الغرب - كليبر - مدافعاً عن كرامة الأمة العربية ، وفى الساحة التى تم فيها حرق يده وتثبيته فى الخازوق وقف ضابط فرنسى كان شاهد عيان عما حدث ، وقال بالحرف الواحد ، مما هو مسجل فى الوثائق الفرنسية عن سليمان الحلبى :

(.. بُطِح أرضاً وشق شرجه وأُدخل فيه الخازوق وربطوا ساقيه وفخذيه ويديه وجسمه .. ودفع الخازوق .. وهو ثابت ..) .

الشهادة الثانية :

حين اعترف المحتل البريطانى فى مصر - إبان الاحتلال البريطانى لها

- بأنه قد استخدم الخازوق بشكل رسمي وشرعي ضد المواطنين العرب في مصر من العزل ، يقول بلانت أحد الإنجليز في مصر بالحرف الواحد :

(.. بموجب مرسوم ١٨٩٥م يمكن الحكم بالموت على أى مصرى وإعدامه صلباً أو على الخازوق لمجرد أنه امتعض من اعتداء جندى بريطانى على عرض زوجته أو أنه حالَ دون ذلك ..)

الشهادة الثالثة :

وهذه الشهادة لها أهميتها القصوى إذ إنها تأتى من أحد المثقفين الغربيين المهمِّين فضلاً عن أنها تتحدث حول النموذج الغربى - كأبشع استعمار - في سلسلة الاستعمار الغربى ، إن نعوم شومسكى فى كتابه المهم "ماذا يريد العم سام" What UncleSam Really Wantsحين يتحدث عما يريده العم سام من الشعوب المغلوبة على أمرها ، وماذا سنفعله للحفاظ على المصالح المالية الأمريكية ، فإنه يجيب فى كتاب كامل بأنه :

(.. يستخدم وسائل العنف من تهشيم الأطفال الرضع ، أو تعليق النساء من أقدامهن ، وقطع أثدائهن ، وسلخ جلودهن أو قطع رءوس الضحايا - يضيف - ووضعهم على خازوق ..)

هذا هو كل ما يقدمه الغرب .

وهذه ثلاث شهادات (لحقيقة الغرب) ، وهى حقيقة تعود إلى كراهيته العميقة لنا ، إلى درجة استخدامه لأبشع آلات التعذيب ، ومعاملته لنا بتحيز تام سواء فى استخدام الخازوق بشكل مباشر (كما هو مع سليمان الحلبى ، أو الفلاح المصرى الأعزل ..) أو بشكل غير مباشر - كما سنرى من فصول هذا الكتاب .

إنه (الخازوق الغربى) ..

إن الخازوق يستخدم كثيراً ، سواء فى إصرار الغرب أن تكون التنمية الاقتصادية - تنميتنا - تابعة له تماماً (ولدينا عشرات من الاتفاقات ليس آخرها الجات ، أم فى استخدامه معنا لكل صنوف الإرهاب ، حتى أصبح - أى الإرهاب - بشهادة الغرب نفسه - صناعة غربية ، أو فى تزويره للتاريخ بدأب ووقاحة رغم ظهور عدد من مؤرخى (المدرسة الجديدة) فى الغرب ، أو ظهوره السافر خاصة فى الفترة الأخيرة عبر العنصرية الغربية - خاصة فى يمينها المتعصب - مظهراً معادياً تماماً لنا (ولنراجع على سبيل المثال تشويه مقدساتنا الإسلامية ورسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم) بالرسومات الكاريكاتورية أو تمزيق القرآن أو استخدام آياته فى الملابس النسائية الداخلية ! ! ، أو النيل من السيدة مريم وتصويرها تصويراً عنصرياً . . إلخ) .

لا يستثنى من هذا عسكرى مثل اللورد اللنبى الذى كان - كما تقول المصادر الغربية - يقرأ فى كل ليلة فى كتابين أحدهما الإنجيل .

أو كاتباً مدنياً وأستاذاً جامعياً مثل برنار كما تقول أبحاثه المعمقة ، وخداعه للكثير منا أنه يحاول أن يعيد التاريخ العربى بصيغة غربية أو صهيونية خالصة .

نجد هذا فى إسرائيل كما نجده فى الغرب (وهى إحدى طلائع المركزية الغربية المنغرسة فى اللحم العربى) . . فإسرائيل ليست غير نتاج للمركزية الغربية فى سياقها التاريخى ، ولو لم يأت الصهاينة لاحتلال فلسطين ، لأتى الغربيون أنفسهم ، والأسماء كثيرة والذرائع عديدة - لاحتلال فلسطين العربية .

ومن يستريب ليتذكر معنا (ويمضى هذه الأيام نصف قرن على النكبة) مجازر دير ياسين وكفر قاسم إلخ

ومن يستريب يتذكر معنا أن أطفال (قانا) وأبناء (النبطية) وقبل

ذلك أبناء «بحر البقر» الذين ذُبحوا بأسلحة أمريكية ، وبصمت أمريكي خالص ، والوثائق موجودة ومعلنة في أكثر من عاصمة غربية ولا تحتاج للبحث أو الدهشة .

وحين نتذكر "دير ياسين" أو "قانا" .. والبقية ستأتي ولن تتوقف - يجب أن نتذكر ، بنفس الشكل ، كل المذابح العربية الأخرى من قبل الصهاينة أو الأمريكان التي يستخدم فيها الخازوق :

إما بالشكل السافر كما عرفناه في الحملة الفرنسية .

أو الشكل غير مباشر كما عرفناه - ونعرفه في ممارسة أحدث أسلحة الترسانة الغربية ، وهي الأمريكية في عصرنا الأخير .

نجد هذا في الماضي .. كما نجده في الحاضر .

نجد هذا في الحاضر .. كما سنجده في المستقبل .

نجد هذا في بلادنا ضدهم .. أو نجد هذا في بلادهم ضدنا

إنها حقيقة الغرب التي لا يجب أن .. يخدعنا لحظة باسم المعلوماتية ..

إنه (اقتصاد السوق) وليست الحضارة الغربية بأية حال .

***

بقي أن أشير إلى أن هذه الوجوه أو الفصول التي احتوتها هذه السطور حاولت أن أكتبها في الواقع المعاصر ، وعبر الاسترشاد بنبض هذا الواقع الحي في نهاية القرن العشرين .

وكان سبيلي إلى ذلك التماس جملة من أفكار الجماعية Aqele-cism كأحد أدوات البحث ، إذ حاولت الاسترشاد بأفكار الغالبية من القراء والمعلقين المحاورين لنا من شتى الفئات الثقافية .. فهذه الفصول كانت قد نشر أغلبها في صورة مقالات بجريدة الأهرام بين ربيع / صيف ١٩٩٨م إبان اشتعال أوجه الخلاف بين المؤيدين للاحتفالية بمرور

مائتى عام على مجىء الحملة الفرنسية (وقد اتخذت فى البداية شكل اتفاق ثقافى رسمى) ، وبين المعارضين لها .

ورغم أن الحوار الحاد كان يعكس الخلفية الثقافية والسياسية ، فقد جهدت منذ البداية أن أدرس الحملة الفرنسية فى ضوء الحاضر ، وليست جسماً منقطعاً عن بقية الأجزاء العضوية للتاريخ المصرى بأية حال .

وقد يكون من المهم أن أشير إلى أن ما كان ينشر فى «الأهرام» كنت أستعيده فى وقته وأحاول إعادة كتابته من منطلقات كثيرة كانت تحتمها الأحداث ، وتغذيها ردود الأفعال ويؤكدها الفعل الغربى .

أردت أن أرى الحاضر فى مرآة التاريخ .

وأعترف أننى لم أهتم - منذ البداية - بالموقف الرسمى ، أو الموقف المضاد له بقدر ما اهتممت برأيى فى هذا المجال كدارس (حصلت على الدكتوراة فى التاريخ الفكرى) كما أن لى جهداً سابقاً حول علاقة الغرب بالشرق فى كتاب صدر عن الهيئة العامة للكتاب فى ربيع ١٩٩٤م بعنوان (الجبرتى والغرب / دراسة حضارية مقارنة) ، لكنى - وهذا استطراد للاعتراف - اكتشفت أن الرأى العام الجماعى يقترب منى ، أو أقترب منه ، ولم يلبث - حين بدأت هذه الكتابات - أن اقترب أكثر ليحتل مساحة شاسعة فى فكرى ، لا لكثافته وتردده فقط ، وإنما لإيمانى أن الكاتب لابد أن يكون معبراً عن الرأى العام ، معارضاً للسائد والمتخلف .

ومن هنا ، وجدتنى أقف فى معسكر واحد مع هذا العقل الجمعى الذى تفهمته وحاولت تمثيله على قدر الإمكان ، ومن ثم - وهو اعتراف آخر - اكتشفت أننى لا أقف فى معسكر العديد من المثقفين الذين يجب أن يتخذوا مواقف واعية للتعبير عن شعوبهم ، وهو ما توغلت فى اكتشافه أكثر ، حين وجدت عنوانات مقالاتى تحمل ألفاظاً من نوع

(رطانة المثقفين) تعبيراً عن الفكر الذى يحاول أن يعبر عنه غالبية من المثقفين .

كان (.. المسيخ الدجال) ، وهو عنوان ، تعبيراً عن هذا المثقف الذى اقترب إلى حد بعيد من هذا الكائن الذى يتحدثون عنه فى الماضى رابطاً بينه وبين المثقف المعاصر .

وكان هذا جزءاً من اكتشافى لأنماط من المثقفين فى عصر (العولمة) فى نهاية القرن العشرين لم أكن لأعرفهم قط قبل هذا ، لم أعد أعرف نمط المثقف المتمرد أو الصامت ، وإنما هو نمط آخر من المثقفين اقترب من مثقف ينتصر لاقتصاد السوق أكثر من الهوية الثقافية (وقد أسهبت فى هذه الأنماط فى بحث ألقيته فى ندوة : العولمة) التى أقامها المجلس الأعلى للثقافة إبان هذه الفترة .

كان عدد كبير من المثقفين يرون فى الحملة ملمحاً يغاير الصورة العامة ، لم يدركوا - قط - أن الحملة الفرنسية لم تكن غير أحد آليات المركزية الغربية فى القرن الثامن عشر ، ولم يدركوا - قط - أن المركزية الغربية مازالت تجد فى عدوها فى القرن العشرين (غالباً فى الشرق) .. عدوا أزليا لا تاريخيا - وهو مفهوم رددته مارجريت تاتشر (رئيسة وزراء إنجلترا السابقة) عقب سقوط الاتحاد السوفيتى فى نهاية الثمانينيات وهى تشير إلى الإسلام .

ومن هنا ، حاولت - فيما أزعم - التعبير عن الأفكار الجماعية أكثر من التعبير الفردى .

لم أحاول أن أحبس قلمى فى قمقم التاريخ بقدر ما سعيت إلى القبض عليه فى رياح العولمة وآلياتها الشرسة .

وثمة استطراد أستأذن فى التوقف عنده هنيهة :

سعيت إلى التماهى مع الضمير الوطنى أكثر من الانضمام إلى هذه

الجوقة التى راحت تضرب سلاماً جماعياً للنظام ، رغم أن النظام نفسه لم يعين نفسه وصياً على هذا المثقف أو ذاك ، ورغم أن النظام - وأشهد على ذلك - لم يحاول التدخل فى التأثير فى هذا الطرف أو ذاك إبان الجدل الذى دار حول الحملة الفرنسية (ومن المهم أن أشهد أيضاً أن النظام لم يحاول - وهى تجربة شخصية- التدخل قط بينى وبين التعبير عن الاشمئزاز من المركزية العنصرية والموقف الأمريكى، وسرد مرجعياته ، ومواقفه القبيحة منا ، كما لم يحاول أن يؤثر فى هذا الطرف أو ذاك فى قضايا كثيرة كقضية التطبيع مع إسرائيل . . وقضايا أخرى ليس مكانها هنا) .

المهم أن المثقف الفرنسي والمتفرنس كان ملكياً أكثر من الملك . . كان يدافع عن دور لم يطلب منه فيه أن يكون مؤيداً له .

ونترك الاستطراد إلى ما بعده .

لقد سعيت إلى التعبير الذاتى على اعتبار أن الفكر الفردى غالباً ما يكون تعبيراً عن أفكار الجماعة وهو ما نلاحظه فى هذه الفصول التى لم أتردد فى قبول عديد من الآراء والرسائل فيها أو الوثائق التى كانت تأتينى من المثقفين والقراء على شتى فئاتهم ، ثم أدخل حواراً معها بالسلب والإيجاب .

لم أقتصر على وجهة النظر المعادية للغرب بقدر ما تقبلت وجهة النظر الأخرى ، المغايرة لرأيى ، التى رأت فى الحملة الفرنسية فائدة حضارية ، ومن ثمَّ ، فائدة فى تطوير المد التاريخى لنا وأثبت هذا فى وجهات النظر سواء فى المتن أو فى الملاحق بعناية فائقة .

***

وحين يأتى الحديث عن الملاحق ، فإننى أدافع عن وجهة نظرى التى دعتنى إلى تخصيص هذا الجزء لأضع فيه كل ما يضيف إلى الفصول

لتأكيد الحدث ، إيماناً منى أن عصر الصورة لا يمكن أن يتراجع ثانية ، وإن الصورة أصبحت أكثر المؤثرات التى تسهم فى تكوين الرأى العام ، ولو استطعت التعبير أكثر بالصور والوثائق لفعلت . أما عن المصادر الأساسية أو المراجع التى عدت إليها ، فإنها أكثر مما أستطيع إثباته هنا ، ومن ثم سأكتفى بالإشارة إليها فى المتن ، على أمل أن الإشارة تعيد - لمن يريد - المرجعية العلمية أو التاريخية ، خاصة أننى حرصت على ألا يكون فى ذكر هذا المرجع أو ذاك موضعاً للبس ، لقد كانت المرجعيات التى ذكرتها من الوضوح بحيث لم أكن قلقاً بشأنها ، كما كانت المجتزئات من الدقة بحيث عبرت عما أريد .

بقى أن أشير إلى ملاحظة لا أعرف مدى أهميتها فى هذا السياق ، وربما يكون فى ذكرها إفادة فى الاقتراب أكثر مما أريد .

فقد كان صاحب هذه السطور (شاهد عيان) للكثير منها سواء لاشتراكه فى الحرب ضد إسرائيل لسنوات امتدت ما بين ١٩٦٧ ، ١٩٧٣ ، أو سواء لاشتراكه فى عديد من المؤتمرات أو الندوات أو المهرجانات التى أقيمت فى عواصم عربية كثيرة وقد كان مشاركاً لها فى عديد من العواصم بحكم عمله ككاتب وكناقد عربى من مصر

وقد حرصت فى هذا كله على تسجيل ملامح الوجه الغربى القبيح لهذا الغرب عبر تسجيل الأحداث وتتبعها وإعادة النظر فيها مثل (جبرتى) القرن الماضى حين وقف فى مفترق ليشهد المنطقة العربية وهى فى مفترق الطرق بين ماضى وحاضر ، وهى تعانى ما يعانيه من يقف فى مثل هذا الموقف من الانبهار والدوار ثم الوعى والفعل .

وأعتقد جازماً أن عملية تنمية الوعى لدىَّ كانت قائمة على المعرفة ، فقد أصبحت المعلومات الآن أهم عنصر فى إعادة تكوين الوعى ونحن قد دخلنا بالفعل إلى القرن الواحد والعشرين فأرجو أن أكون قد

كشفت عن بعض وجوه هذا الغرب القبيح ..

أو أكون قد لفت النظر أكثر إلى (الخازوق) ليس (خازوق) سليمان الحلبى فقط ، فقد كانت هذه الآلة العنيفة رمزاً لعديد من (الخوازيق) التى يجلسنا الغرب عليها الآن برضانا !! ولازال ◆

د . مصطفى عبد الغنى

بين نابليون وعبد الناصر

دهشت أن يقرن البعض بين الحملة الفرنسية والدور المصرى فى اليمن تحت مفهوم «دهاء التاريخ» - مفهوم هيجل .

ومصدر الدهشة ما ذهب إليه من أن المقارنة بين الحملتين - حملة نابليون وحملة عبد الناصر - إنما هما متساويتان فى التأثير الإيجابى ، وهو ما وصل به إلى نتيجة مؤداها أن «الجيش المصرى حين ذهب إلى اليمن قد فعل شيئاً مماثلاً لما فعله جيش نابليون عندما غزا مصر ومعه المطبعة ومئات من العلماء المتخصصين فى شتى فروع العلم ، والذين جعلوا من تلك الحملة بداية لإعادة اكتشاف مصر .. فقد اصطحب الجيش المصرى معه إلى اليمن مئات من المدرسين والأطباء والمهندسين فكانت تلك هى بداية وعى الشعب اليمنى العريق بالعصر الحديث» .

فهو يرى أن هذا هو ما سيحتفظ به التاريخ للحملة الفرنسية على مصر ، وللحملة المصرية على اليمن ، وهو شىء يستحق على حد قوله الاحتفال .

هنا كانت دهشتى الكبرى ، خاصة فى استخدام كلمة الاحتفال بعد هذا الجدل التاريخى ، فنحن لا نستطيع مقاومة أنفسنا من هذا الشعور بالدهشة الذى يربط فيه بين فرنسا ومصر فى فترتين مختلفتين وبتوظيف مفهوم (دهاء التاريخ) للوصول إلى مضمون مغاير فهناك فارق كبير بين دوافع مصر ودوافع فرنسا فى كل حالة .

فالواقع أن مصر لم تكن - أبداً - كفرنسا من حيث نوازعها الإمبريالية الصرفة كما أن اليمن لم تكن - أبداً - كمصر فى الهدف

الذى ذهبت من أجله مصر إلى هناك ،كذلك فإن مصر - كما يردد الكثيرون الآن - لم تكن جثة هامدة ، ظلت هكذا طيلة قرون عديدة حتى جاءت الحملة الفرنسية فبعثت فيها مس الكهرباء ليبدأ البعث من جديد .

هل هذا معقول ؟

وهل قدر علينا أن نتحدث دائماً فى قضايانا - بشكل جدلى - يتحول مع الخواطر الشخصية أو التأملات الفلسفية إلى يقين يفسر التاريخ ويغيره أنه لا طريق آخر أمامنا . .

***

والطريق يسهم فى تأكيد أكثر من اتجاه :

- فالحملة الفرنسية كانت استعمارية .
- كما أنها لم تأت إلى مصر الغائبة .

أما أن الحملة كانت استعمارية ، فتتفق المصادر التاريخية على هذا فإن الدول الغربية شغلت منذ القرن الخامس عشر بالكشوف الجغرافية التى تحولت إلى صراع استعمارى وطوق للسيطرة على الشرق ، وخاصة أن الصراع بين فرنسا وإنجلترا كان مبعثه - فى المقام الأول - السعى الحثيث للسيطرة الاستعمارية على مصر لموقعها الجغرافى ومركزها الملاحى .

ومراجعة الحقبة التى سبقت هبوط نابليون بحملته على بر الإسكندرية فى ٢ يوليو ١٧٩٨ ترينا أن عدداً كبيراً من الكتّاب والرحالة والقناصلة والسياسيين (منهم سانت بريست وجان بابتيست مور ودى توت وسفارى وفولنى . . إلخ) كتبوا إلى حكومتهم الفرنسية لاستعمار مصر صراحة ، فقد ظل هؤلاء وهم يشيرون إلى ضياع عديد من المستعمرات الفرنسية فى جزر الهند الغربية ، ويلحون كثيراً على

أن مصر ، ومصر بوجه خاص ، هى الميدان الذى تستطيع فرنسا أن تجد فيه حاجاتها التى كانت تستمدها من جزر الانتيل .. فضلاً عن أن (الاحتلال) أو (الاستيلاء) أو (الاستعمار) وهى كلها مفاهيم رددت كثيراً طيلة القرن الثامن عشر تجعل التجارة بين فرنسا وبقية أقطار الشرق فى متناول اليد بدلاً من المشكلات التى تعانيها فرنسا فى غيبة وضع يدها على هذه البلاد ، بل أكد بريست صراحة - وهو سفير فرنسا فى القسطنطينية - على أن «الاستيلاء على مصر أمر لا مفر منه لخدمة المصالح الفرنسية» .

وقد لاحظ فؤاد شكرى فى كتابه عن الحملة الفرنسية ، أن فكرة الاستعمار وصلت إلى مداها باحتدام الصراع بين فرنسا وإنجلترا ، فاقترن الانتقام من إنجلترا بفكرة استعمار مصر ، لم ترسل حكومة فرنسا حملتها «للانتقام من إنجلترا فحسب ، بل ولإنشاء مستعمرة فتية فى مصر» ، إذن كان نابليون يمضى حثيثاً فى طريق إحياء «مجد الإمبراطورية الاستعمارية» .

فرنسا جاءت - إذن - مستعمِرة (بكسر الميم) ، فكيف كانت مصر غائبة الوعى ؟

عندما نعود إلى الجبرتى - مؤرخ هذه الفترة - يلاحظ أن مصر قبل مجىء بونابرت لم تكن أبداً بلداً يغيب فيها الوعى ، وتعيش فى كساد تجارى أو اقتصادى قط ، فهذه الطبقة الجديدة التى تكونت عبر العصر العثمانى رغم كل سلبياته كانت من التجار والزعماء وعلماء الدين ، كانت مصر فى طور التطور ، بحكم تطورها الفكرى والدينى (سوف نعود إلى ذلك أكثر عبر كتابات بيتر جران وعبد الرحيم عبد الرحمن وأندريه ريمون ونيللى حنا التى ترجم عنها د . رؤوف عباس فيما بعد - وهو ما سنعود إليه) ، بل لولا التطور الذى كانت تشهده مصر قبل

مجيء الفرنسيين ما كان يمكن أن نجد هؤلاء العلماء المصريين وهم يتصدون للحملة ويقاومونها دون توقف .

كانت الحملة الفرنسية إذن تسعى إلى الاستعمار فى المقام الأول كذلك كان نابليون ، الإمبراطور ، يسعى - بوضوح أكده كل من كتب عن هذه الفترة - إلى تكوين الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية فى الشرق فهل كان عبد الناصر هو نابليون ؟

لنر الإجابة ونحن نستكمل دور مصر فى اليمن . .

***

وعبوراً فوق أحداث كثيرة تشير إلى انقطاع اليمن الطويل عن العالم ، فقد كانت اليمن فى بداية الستينيات تواصل محاولات الانتفاضة ضد حكم الإمام الذى تحالف فيه التخلف مع الاستبداد مع الجهل ، وبدت اليمن قطعة من العصور الوسطى .

وعلى هذا النحو ، تحرك عبد الناصر لمساندة اليمن فور إعلان الثورة فيها ، فإن مشروعه / مشروعنا القومى كان ينتابه التراجع من الدول التى كان فى سبيل إقامة وحدة عربية معها ، كان الانفصال قد حدث ، وانتهت أواصر أول وحدة عربية فى التاريخ ، وراحت الخلافات مع العراق تزيد ، بل إن اليمن الذى كان قد أعلن فى بداية إعلان وحدة مصر وسوريا انضمامه إلى هذا الاتحاد ، كان فى سبيله الآن ليتراجع أيضاً ، ويتمرد على القوى الصاعدة ضد الاستعمار وفى العالم العربى فى ذلك الوقت .

ورغم أن القوى الانفصالية والرجعية كانت قد تصاعدت ، فإنها كانت تقف فى موقف ضعيف بهذا التفكك الذى أحدثته ، وهذا النكوص الذى لم تستفد منه غير القوى الغربية (كانت الأمركة فى هذا الوقت فى خطواتها الحثيثة للاستحواذ على العالم وتمزيق القطب

الآخر ، خاصة ، أن الدولة الثانية التى اعترفت باليمن بعد مصر كانت الاتحاد السوفيتى) . . كان الواقع العربى يفرض نفسه .

لم يكن نابليون قد جاء إلى مصر بطلب من المصريين ، ولكن الأمر اختلف هذه المرة لقد جاء عبد الناصر إلى اليمن بطلب من القوى الثورية فيها ، بل إن هذه القوى خطت إلى أبعد من ذلك حين ركزت طلباتها من مصر فى سرعة الاعتراف ، وسرعة وصول قوات مسلحة لتقف إلى جانب القوات الثائرة بصنعاء ، وتحارب معها معركة التحرر العربى ضد القوى الرجعية فى المنطقة والقوى الغربية فى الشمال ، وزادت فطلبت دعماً أكثر تمثل فى : إسهام فى الإدارة ، ودعم فى الإعلام، وسرعة فى التلبية . (يقول التاريخ إن مصر بادرت فعلاً فى نهاية سبتمبر ١٩٦٢ فأعلنت اعترافها بحكومة الثورة ، وعلى الفور أرسل عبد الناصر برقيته إلى رئيس مجلس الوزراء والقائد العام للقوات المسلحة هناك بأن مصر تقف «إلى جانب الشعب اليمنى لتسند إرادته وتناصر حقه فى الحياة») .

لم يكن عبد الناصر يسعى إلى إمبراطورية مصرية كما كان يسعى نابليون هناك .

كان عبد الناصر بوضوح شديد يسعى إلى تأكيد الفكر القومى فى هذا الموقف فى مواجهة القوى الشرسة سواء من قبائل الصحراء المجاورة لليمن أو من الشمال حيث الغرب كله كان يسعى إلى إجهاض المشروع العربى فى هذا الوقت (كشفت الوثائق - فيما بعد - أن خطة اصطياد «الديك» - عبد الناصر - وُضعَتْ فى واشنطن حينئذ) .

كان المشروع العربى يواجه المشروع الإمبريالى الأمريكى فى الستينيات من هذا القرن ، تماماً كما حاولت مصر ، فى نهاية القرن الثامن عشر أن تواجه المشروع الاستعمارى الفرنسى .

كان البون شاسعاً بين التوجهين .

لم يكن نابليون هو عبد الناصر أبداً .

***

لقد خدع نابليون المصريين حين راح يؤكد أنه ما جاء إلا لوضع مصر فى مصاف الدول المتقدمة ، ولكى يقضى على المماليك الذين أذلوا أهل البلاد واستولوا على خيراتها .. بينما كان عبد الناصر يعبر عن القيم التقدمية التى نادى بها سواء من صوت العرب منذ سنوات ضد القوى الرجعية فى اليمن أو سرعة الاعتراف بالثورة ، ثم فى إعلان قيام قيادة مشتركة تعمل تحت القيادة العليا لقائد الثورة اليمنية نفسها ، ووضع لها اتفاقاً استمر لخمس سنوات .

كان نابليون فى أول الأمر يسعى إلى احتلال إنجلترا ، ثم تغيرت خطته - أمام عديد من الصعوبات - لاستعمار عديد من الدول الاستراتيجية ليقطع الطريق على إنجلترا فى مستعمراتها . أما عبد الناصر ، على العكس ، كان يسعى إلى تأكيد إيمانه بالقومية العربية وضرورة تحرير كل أجزاء الوطن العربى من الرجعية والتخلف والاحتلال .

كان نابليون يسعى إلى تأسيس إمبراطورية استعمارية .

كان عبد الناصر يسعى إلى محاربة أية إمبريالية استعمارية .

سعى نابليون لإجراء عديد من الإصلاحات لصالح المستعمر أو - إذا أحسنا التقدير - لاستمالة الأهالى ليظهر بمظهر المتمدين ، والذى يبحث عن مصالح أهل البلاد .

أما عبد الناصر ، فقد سعى حثيثاً ، حين ذهبت القوات المصرية إلى اليمن ، ومنذ الأيام الأولى ، إلى إقامة الإصلاحات ، بل الأكثر من ذلك ، خلق نظام للخدمات لم يكن موجوداً فى اليمن ، فأسهم فى مد الطرق

وإقامة المطارات وخطوط التليفون والتلغراف والمستودعات والورش والمستشفيات وجميع الأنظمة الاقتصادية الأخرى ..

لم يبدأ نابليون التحديث حتى بطريقة دهاء التاريخ .

بدأ عبد الناصر التحرر والتحديث وسعى إليه .

***

بقيت صورة لا تخلو من دلالة :

قال نابليون وهو يقف على مشارف موسكو فى نهاية القرن الثامن عشر : «هنا ينتهى التاريخ» أى أن التاريخ انتهى بانتصار الاستعمار الفرنسى .

وأشار «فوكوياما» ممثل الإمبريالية الأمريكية فى نهاية القرن العشرين إلى (نهاية التاريخ) ..

وهو قريب مما ردده بوش عقب الذهاب (كنابليون مع تغير الظروف) إلى الخليج العربى تحت مسميات كثيرة أى أن التاريخ انتهى بانتصار الإمبريالية الأمريكية

فهل كان عبد الناصر هو نابليون ؟

وهل كان عبد الناصر هو بوش ؟

وما علاقة هذا كله «بدهاء التاريخ» كما يذهب بعض كتابنا المعاصرين .

سامحهم الله ◆

رطانة المثقفين !!

منذ كتب عن الحملة الفرنسية وأنا أتابع ما يكتب عنها فأسمع شيئاً كالرطانة أو قريباً منها .. والرطانة (بفتح الراء وكسرها) في لسان العرب، هو كلام لا يفهمه الجمهور ، وهو ما يعني أن أغلب ما كتب أو قيل يصور هذه الرطانة ويعكسها في المفهوم العام إما لتعدد الآراء وتباينها أو لتداخلها لتبدو كحشرجة المذياع بين المحطات الرئيسية .

هذه الملاحظة لم أقصد بها لوم أحد ، وإنما هي (تقرير حالة) لموقف المثقفين اليوم وهو موقف يمتد ليصل إلى عديد من قضايانا التي نناقشها في الإعلام المكتوب أو المسموع أو المرئي ، فينتهي الأمر إزاء أية قضية تعن لنا ، بمعارك وهمية لا نصل فيها إلى جديد ، ونرى عبر صيحات (جنرالات المقاهي) الكثير من القضايا تتعثر قبل أن تسقط فلا يسمع أحد عنها بعد فترة لتبدأ معركة أخرى من موقع إعلامي أو ثقافي آخر .

لقد تنامت إليَ أصوات هذه الرطانة عبر أسلاك التليفون أو خطابات مكتوبة أو كتابات قرأناها جميعاً في الصحف ، وكان آخر هذه الأصوات وأعلاها هي التي سمعتها في (الملتقى الثقافي) الذي أقيم بالإسكندرية وأشرف عليه أحد رجال الأعمال ، واستطاع أن يجمع جمعاً ضخماً من الأساتذة والمهتمين من شتى الفئات لمناقشة (آثار الحملة الفرنسية ...) وحتى إذا ما انتهت الجلسة الأولى حتى اكتشفت أنني - مع تداخل الأصوات واختناقها - كدت أسقط أيضاً في الرطانة .

***

وقبل أن أغيب أكثر في هذه الرطانة لابد من الإشارة إلى هذا الجهد

الكبير الذى قام به صاحب (مؤسسة أندلسية) من تجميع كل هذا العدد الهائل لمناقشة قضية يمكن أن تكون - لو تنبهنا للزاوية الخطيرة فيها - إلى أهم القضايا التى تناقش فى نهاية القرن العشرين .

والواقع أن صاحب الملتقى يعد استثناء بين رجال الأعمال المعاصرين الذين يتحدثون ليل نهار عن المشروعات التنموية الخاصة ، أو أعمال الخير التى يقال أنها تتم فى الخفاء ، ولا بأس من الحديث العام فى ندوات تعقد هنا أو هناك لرصد دور رجال الأعمال أن نسمع من بعض رجال الأعمال أنفسهم أنهم يقومون - ويقولونها بفخر شديد - بتشغيل أعداد من العاطلين مما يجعلهم يسهمون فى حل أزمة البطالة مطالبين بالكثير من التسهيلات لبرامج الخصخصة .

لقد لاحظت أن صاحب هذا الملتقى يعمل - منذ فترة ليست بالقصيرة - على تشجيع الثقافى لا الدعائى ، وقد دهشت أن أعرف أن هذا الموضوع - الحملة الفرنسية - يناقش فى ذلك الملتقى للمرة الرابعة (أحجم عن ذكر الأساتذة الفضلاء فى هذا الملتقى كيلا أنسى أحدهم ، وكلهم معرفون بالعلم وسعة الأفق) ، وإن شغل بها الغالبية من المثقفين الآن (وهى مثال لأية قضية من قضايانا الشائكة) ، فإن هذا لا ينفى أن لدينا - فى الوقت نفسه عدداً آخر من المثقفين الواعين ، غير أنها أقلية ، يكاد صوتها يذهب مع رياح الرطانة العالية ومن الملاحظ أن التأثير الأكبر مازال لهذه الغالبية .

***

إنها تعلو مرة إلى أقصى درجات المعارضة لمن يهاجم الحملة وتعلو مرة أخرى لتصل إلى أقصى درجات التأييد لمن يدافع عن العثمانيين .

البعض يريد أن نفصل ما بيننا وبين تراثنا حتى نوصل ما بيننا وما بين الغرب .

والبعض الآخر لا يريد أن يتزحزح عن القرن الثانى للهجرة كيلا نتفرنس ونقع فى محظور الغرب وحضارته الآثمة .

وبين هؤلاء وأولئك درجات كثيرة من الرفض والقبول والغضب والشجار .. إلى آخر هذه الهجائية التى تعلو فتصنع الرطانة وتغلو فنصبح بغير قضية تصل بنا إلى الرأى الصواب .

البعض يرى أن عصورنا الزاهية كانت فى القرون التى شهدت وجود العثمانيين واستبدادهم . والبعض الآخر يرى فضل الحملة الفرنسية فى أنها جاءت فأحدثت (الصدمة الكهربائية) التى دفعت بالجسد (الميت) إلى انبعاثة عاد بعدها إلى الحياة .

البعض يلوم وزير الثقافة لأنه أيد الاحتفالات بالحملة .

والبعض الآخر يرفض أن يكون الوزير فعل ذلك ، مقسماً أنه سمعه - بأذنيه - يتهم من يؤيد الحملة بالخيانة .

إنها الرطانة تتكرر فى كل ما نقرأ أو نسمع عن مجىء الحملة ، وخطورة الرطانة أنها أصبحت فى حكم البدهيات ، والبدهيات يمكن أن تصبح مع مرور الوقت ، وتكرار الآراء أقرب إلى ضيق الأفق بما لا يمكن تغييره ، فقد تعود الذهن العربى على التقليد ، وأصبح من المستحيل الإقلاع عن ما عرفه ، على اعتبار أن ما عرف أصبح بدهياً .

والبدهى نوع من أنواع الواقع يجب أن نتعود عليه ونعيش معه . وهو ما نستطيع أن نعدد معه هنا قضايا كثيرة أصبحت تتداول كأنها حسمت كالحديث عن قرار صدر للاحتفال رسمياً بالحملة الفرنسية ، أو منح منهجية فلسفية لقضية وهمية نوقشت تحت عنوان (دهاء التاريخ) أو المدى الذى أحدثته (الصدمة الحضارية) فى أفهامنا إلى غير ذلك مما كانت تتحول القضايا معه إلى اتهامات يتصايح أصحابها لتذوب فى هذه الرطانة مرة أخرى .

ومن هنا ، حرصنا أن نبتعد عن الرطانة ، وأن نبحث عن القضية الجوهرية . . وهو السؤال الرئيسى فى القضية ؟

***

بمتابعة ما كتب أو ما قيل ، وباستخدام عين الطائر ، لاحظنا أننا أمام ثنائية فى الفهم : الاستعمار / الحضارة ، لا تلبث أن تتوحد إلى قضية واحدة تعالجه - مع اختلاف وجهات النظر - بشكل محدد ، قضية تشير إلى الفرنسيين كمستعمر ، ولا تلبث القضية الأخرى أن تقترب أكثر فأكثر من الحضارة ، فيغيب المستعمر وويلاته التى عرفناها من مصادر عديدة إبان مجىء الحملة ويتحول إلى حضارة وحسب ، وإذا كانت تكاليف الحملة ثقيلة ، فإنه لا مناص من الاقتناع بها .

إنه الصراع بين الوطنية والحضارة .

والواقع أن المراهنة على أن الحملة الفرنسية جاءت كمستعمر - كما أشرنا من قبل - واقع لا يقبل المجادلة ، ففظائع الحملة تسود مراجع كثيرة من فظائع شبراخيت ومعركة الأهرام ، وصولاً إلى كل ما ارتكبه كليبر بفظاظة لم نعرفها فى عصر جنكيز خان من قبل ، كان يجب أن نقول - ونستريح إلى ما نقول - أن الغرب جاء إلينا فى نهاية القرن الثامن عشر كمستعمر ، أرسلت الثورة الفرنسية وعصر التنوير من يبحث لها عن أسواق جديدة ومستعمرات غنية ومجداً مهيباً تواجه به ما ضاع أثناء صراعها من الإنجليز ، فكان الصراع بين الفرنسيين والإنجليز لظهور الحملة فى مصر ، وما ترتب عليها من القتل والتسفيه والحرق وما إلى ذلك مما عرفناه فى التاريخ الإنسانى مما يتلاشى معه الأثر الحضارى - على اعتبار أنه جاء وبقى فترة الثورة الفرنسية .

لم أكن فى حاجة إلى أن أقرأ «ذكريات سانت هيلانة» أخيراً لأسمع صوت نابليون فى بداية القرن التاسع عشر وهو يبدى ندماً شديداً على

تركه مصر ويكشف عن حلمه استخدام مصر كقاعدة لغزو الشام ثم العراق ثم فارس وحتى الهند وقد كان فى نيته - كما تقول الذكريات - أنه كان سيقوم بتكوين جيش مصرى من أبناء الفلاحين المصريين لإنشاء هذه الإمبراطورية الاستعمارية ، بل إنه لا يتردد فى الكشف عن أنه كان قد أعد عدة مشاريع للعودة إلى مصر مرة أخرى بعد أن كان قد خرج منها بل وأرسل جواسيس لمصر تمهيداً لذلك الحلم الاستعمارى .

كما لم أكن فى حاجة لأستمع إلى مواطنه - الفرنسى المعاصر ريتشارد جاكمون - وهو يقول : «المعروف هو وجود ارتباط بين السيطرة العسكرية والعلمية للمشروع الاستعمارى إبان القرن التاسع عشر» .

كذلك لم أكن فى حاجة لأمسك فى يدى جريدة الحملة الحملة الفرنسية فى مصر وأقرأ فى الكوديبه دى ليجبت العدد ٧١ (٢٧ بريريال - السنة الثامنة للجمهورية)وأمسك فى اليد الأخرى عبد الرحمن الجبرتى (سنة خمسة عشر ومائتين وألف [*]) عن مصير سليمان الحلبى ، وأقرأ :

جاء فى الصحيفة :

ولقد اختارت اللجنة بالإجماع نوعاً من العذاب ، يستخدم فى البلاد بالنسبة للمجرمين الكبار ، ويناسب فداحة الجرم ، ولهذا فقد حكمت على سليمان الحلبى بأن يحرق معصم يده اليمنى ، ثم يغرس فى مؤخرته وتد ليخترق أمعاءه ، ثم يترك وحيداً وبه الوتد إلى أن تأتى الغربان والطيور الجارحة لتنهش جسده و ...»

وجاء فى عجائب الجبرتى : (ولا يجب أن يخدعنا انبهاره بالعدالة الفرنسية المزعومة) :

(*) الجزء الثالث من عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، عبد الرحمن الجبرتى ، المطبعة العامرية الشرقية ١٣٢٢ .

« .. وأفتوا أن سليمان الحلبى تحرق يده اليمنى وبعده يتخوزق ويبقى على الخازوق لحين تأكل رمته الطيور وهذا يكون فوق التل الذى بر قاسم بك ويسمى تل العقارب وبعد دفن سارى عسكر العام كليبر وقدام كامل العسكر وأهل البلد الموجودين فى المشهد ثم .. »

ويهمنا فى هذا الصدد أن نقول أنه فى الوقت الذى نتحدث فيه عن حملات بونابرت وقسوته هو وخلفائه على الشعب المصرى الأعزل لا يجعلنا نغض الطرف عن حملات عثمانية سابقة كانت أكثر قسوة .

وهو ما يعنى أن ذكر عنف الغرب إنما لندلل به على أن حضارة العنف التى تحاول أن تبرر كل شىء بالعنف من أجل تأكيد وجود الرجل الأبيض واستحقاقه ، خاصة ، أن العنف كان متقدماً أكثر من العثمانيين ، فجاء موقفه على حساب قيمه والزعم بالدور الحضارى للرجل الأبيض وتنويره .. وما إلى ذلك .

إن العنف لا يجعلنا نكيل بمكيالين ونحن نرى الآن ، فى معرض حديثنا عن قسوة الفرنسيين أن ثمة عنفا ومذابح ترتكب من بعض المسلمين على المسلمين وهو ما لاننكره أو ندافع عنه .

وإنما نحن بصدد الرفض أن نصدق ، مع البعض أن الحملة الفرنسية جاءت لتحضرنا ، أو أنها جاءت لتلقى بنا فى طاحونة التمدين .

وفى جميع الحالات ، فنحن لا نهاجم جنود الحملة الفرنسية لحساب السلفيين ، وإنما لكشف الموقف الغربى العنصرى الذى يتخذه الغرب منا (سواء كان فرنسيا أو أمريكيا أو صهيونيا ..)

***

وعودة إلى ما سبق ، فلم أكن فى حاجة لأن أؤكد - وقد دعيت للحديث فى الملتقى الثقافى - أن الحملة الفرنسية ليست أكثر من حملة صليبية ثامنة (سبقتها الحملات الصليبية المعروفة فى القرنين الحادى

عشر والثاني عشر) - على سبيل المثال - وهو ما تعرفنا عليه في العصر الحديث في كثير من الأمثلة .

ثم ، ودون القفز على الأحداث ، ألا يعد ما يحدث الآن في الغرب من بناء الفرانكفونية امتداداً مؤكداً لأهداف الحملة الفرنسية . لقد أعلن الرئيس شيراك ، صراحة ، إبان تولي بطرس غالي لهذه المنظمة تحول الفرانكفونية من الثقافة إلى السياسة .

البحث عن الدور السياسي لا الثقافي هو هدف الرئيس الفرنسي .

إذن هي الهيمنة الاستعمارية الفرنسية من جديد في عصر العولمة (الأمركة) .

وهل نحتاج إلى رطانة لتأكيد هذا ؟ ◆

الحملة الفرنسية / الأمريكية .. !!

بيننا من يتحدث - لا يزال - عن ذكرى الحملة الفرنسية وكأنها بداية التحضر العربى فى العصر الحديث ، ويغيب البعض - لا يزال - فى رطانة افتقاد الوعى ورعونته .

وقد دهشت ، فى المرة الماضية ، أن يغضب عدد كبير من المثقفين من لفظة (رطانة) التى استخدمتها ، وكأننى أعنى بها سوء النية ، أو النيل من البعض ، فى حين أنها لم تزد - عندى - على أن تكون خلافاً فى الرأى الذى يريد إفهامنا ولن نفهم أبداً أن الحملة الفرنسية جاءت بهدف تحضرنا نحن الخارجين من انحطاط العصر الوسيط - بالمناسبة ليس فى التاريخ الإسلامى عصر وسيط ، كالتاريخ الغربى ، بين القديم والحديث .. وهو رأى لا نتفق فيه مع أصحابه ، فالحملة الفرنسية جاءت من الغرب ، وتحاول فى امتدادها المعاصر عبر الغرب الأمريكى الوقح ضرب شعب العراق لتعيد العرب إلى الوراء .. الحملة التى تأتى من الغرب من آن لآخر تحمل هدفاً استعمارياً واحداً يتغير شكله وزمنه ولا يغير اتجاهه ومضمونه .

الحملة .. / الأمريكية الآن تسير فى هذا السياق ، وهى قبل هذا وبعده تأتى من الغرب إلى الشرق . ولذلك ، كانت سعادتى بالغة بعديد من ردود الأفعال التى وعت هذه البدهية وأكدت عليها فى تاريخنا الحديث وهو ما نتمهل عنده قليلاً .

***

نختار من بين استجابات كثيرة جاءت إلينا رسالة من الإسكندرية ،

وبوجه خاص من ندوة (الحملة الفرنسية) ، وبوجه أخص من د . محمد صفوت لتمثيله لعدد كبير من المثقفين فى هذه الأمسية ، جاء فى رسالته بعد الديباجة :

(.. واسمح لى بعد قراءتى لمقالكم الأخير المنشور فى جريدة الأهرام ١٦ / ٢ / ١٩٩٨م تحت عنوان "الحملة الفرنسية ورطانة المثقفين" أن أشير إلى ما يلى: برغم كل الندوات والتحليلات التى دارت حول الحملة الفرنسية فإن نابليون كان صريحاً وواضحاً فى تحديد مهمته فى مصر عندما قال «سأستعمر مصر» ، لكن الشعب المصرى رفض المهمة التى يدعى البعض أنها حضارية لنابليون ، وأدركت جموع الشعب آنذاك دون جدل أو لجاجة أنه قادم لاستعمار مصر فقاومته وأفشلته ، وأصبح الصراع الفكرى الذى يدور بين المثقفين منذ الحملة الفرنسية إلى اليوم يدور بين أمرين ، أولهما : الوطنية التى ترفض قيم الحضارات المتفوقة وترفض الاندماج فيها والتبعية لها ، وتتشبث بوجودها وذاتيتها وتراثها ، وثانيها : الحضارة الغربية التى تمثلها الاتجاهات التغريبية فى المجتمع التى تعتبر الحضارة أو التقدم كل لا يتجزأ ، فإذا أردنا حضارة الغرب فعلينا أن نصبح غربيين ، لذا فإن كلاً زعم إبان الغرب حاول تطويرنا وتحديثنا هو جهل بالتاريخ وتزوير لوقائع العلاقات بين الغرب والشرق ، فقد كان دائماً الاحتلال الغربى للشرق هو العقبة التى حالت دون تحديث الشرق ، ويظن بعض المثقفين أن حضارة أية أمة عبارة عن علومها وآدابها وفنونها وصنائعها وبدائعها وأطوارها للحياة المدنية والاجتماعية وأسلوبها للحياة السياسية ، ولكن الحقيقة أن ليست كل هذه الأمور بالحضارة ذاتها وإنما هى نتائج الحضارة ومظاهرها . وإذا صح هذا فلا يجوز أن تحدد وزن حضارة وتحديد قدرها وقيمتها على أساس ما لها

من هذه المظاهر ، وإنما علينا ان نتوصل إلى روحها ونتحسس أساس أصولها .

وبعد ؛ فقد كانت بادرة حميدة تلك التى تقدم بها ، المهندس محمد تاج الدين حين طرح بعض ما تقدم فى منتدى أندلسية للثقافة والعلوم فى الإسكندرية حيث تشرفت برئاسته ...» .

وهنا تنتهى الرسالة لتعود تداعياتنا .

وهو ما يدفعنى فى نهاية السياق إلى تأكيد أن روح الحضارة الإسلامية لم تتأثر بأية حضارة أخرى مهما تكن الظواهر التى نتحدث عنها قط ، اللهم إلا فى درجة الاحتكاك والتأثر وهو ما يعاد صياغته عبر الروح الأصلية للحضارة الأم ، وهو ما يحول ، فى الوقت نفسه - فى حضور الاستعمار - دون إتمام دورة الحضارة بشكل خالص .

بيد أن الدلالة التى يجب أن نشدد عليها الآن ، خروجاً من العموميات ، أن الحديث عن الحملة الفرنسية ليس غير حديث عن الحملات التى تأتينا من الغرب ، وآخرها ما نعايشه ونشهده الآن من **الهجمة (= الحملة) الأمريكية الوقحة .**

***

ولا نحتاج إلى تأمل كبير لنلاحظ نفس الشبه الذى يخيم على كل هذه الحملات ، فالغرب - وبتعبير مرجريت تاتشر - انتهى عقب سقوط الكتلة الشرقية من العدو التاريخى وبقى - ومازال التعبير للمرأة الإنجليزية - العدو الأزلى .

وحين سُئلت إبان حرب الخليج فى بداية التسعينيات عن العدو الأزلى لم تكن فى حاجة لهز الكتف وهى تردد : الإسلام .

إنه الغرب حين تتغير أساليبه من «**الفرنسة ، النجلزة ، الأمركة**» إلى أهدافه : «**الاستعمار ، الإمبريالية ، الرأسمالية**» إلى سعيها الدائب أى

الهيمنة على الشرق عبر تاريخ طويل مرير .

وهو ما لا نستطيع الخلاص منه كلما تحدثنا عن الحملة الفرنسية - كإحدى حملات الصراع - بين الغرب والشرق ، أوبين الشمال والجنوب ، وهو ما يبدو أكثر حين يصور أن نهاية التاريخ هو انتصار الغرب النهائى .

***

والواقع أن حضارة أية أمة لا تتمثل فى علومها وفنونها وصنائعها ولا حتى ما تأتى به من مبهر وعجيب كما لاحظ الجبرتى ، وبالقياس ، فلا يمكن أن ننظر إلى الحضارة الأمريكية بما هو شائع عنها مثل الجينز والكوكاكولا والهمبرجرومنتجاتها الاستهلاكية التى تمتد لتشمل العالم كله كما ردد البعض فى الندوة التى عقدت ببيروت أخيراً عن (العرب والعولمة) .

الحضارة هى الأثر الذى ينبع من روح الأمة ، والذى يكون نتاج الجغرافيا والتاريخ والعقيدة والاحتكاك .. إلخ ، ومن هنا ، نستطيع ببساطة أن نلاحظ أن ما تسعى به الولايات المتحدة الأمريكية بحملتها على العراق ليس غير هجمة رأسمالية عاتية تستكمل بها هجمات سابقة عرفنا بعضها عقب الحرب العالمية الثانية ، وعرفنا أهمها إبان حرب الخليج وما بعدها حتى اليوم .

إذن نستطيع أن نستبدل بالحضارة هنا اللفظة الشائعة المعبرة (**العولمة**) . ونستطيع أن نستبدل بالإمبريالية التقليدية : الرأسمالية التى انفردت بالعالم بعد انفراط عقد الثنائية القطبية وعصر الحرب الباردة .. وما إلى ذلك .

ونستطيع أن نتحدث عن حضارة الغرب النابعة من روح الغرب وتجاربه وتقنياته عبر التاريخ حتى اليوم ، وهو ما نستطيع أن نتحدث به

الآن عن (**العولمة**) الأمريكية التى تنبع من السيطرة والتوق لها عالمياً فى تحول كل القطاعات المعروفة إلى صياغة أمريكية خاصة بها ، فتقوم - تحت ضغوط ووسائل شتى - بعولمة قطاعات الاقتصاد والتجارة والمال والاستثمارات والاتصالات . .

ونستطيع أن نشهد هذا بشكل آخر ، حين نقول إن **الحملة الأمريكية المعاصرة** ، تقوم على العولمة التى هى - بالتمام ، كما يرى العم سام - الهيمنة على العالم كله عبر الشركات المتعددة الجنسيات والحلف الأطلنطى الجديد ، وصندوق النقد الدولى ، والبنك الدولى ، والجات فى تجلياتها الجديدة الخطيرة بعد أن تحولت إلى منظمة التجارة العالمية ، ومجلس الأمن الدولى الذى لم يعد له فائدة أو تأثير اللهم فى اتجاه (الأمم المتحدة الأمريكية) ومن وجهة نظر أصحابها . كما أن الهيمنة تمتد - بشكل مفزع إلى وسائل الاتصالات والإعلام والمعلومات المتعارف على تسميتها (بالطرق السريعة للمعلومات) أو (وسائل الإعلام المتعددة الوسائط) . . إلخ .

نستطيع أن نشهد هذا حين نرى آثار هذه العولمة وهى تتحول إلى تطبيق فى الإعلام المسيطر والمتمثل فى السينما الأمريكية الماكرة والمسلسلات والأفلام التليفزيونية المبهرة التى تمتد إلى مساحات شاسعة على الكرة الأرضية ، ونستطيع أن نرى آثارها بالنسبة إلينا فى التأييد المعلوماتى المخيف لإسرائيل حين يزيد المد المعلوماتى ووسائله إلى إسرائيل (لا فارق بين أمريكا وإسرائيل) فنحن نسمع عن التعاون العلمى الهائل بين الدولتين ، ونحن نعاين التعاون الكبير فى التصدى للشعب الفلسطينى بعد اللعب على أوتار الخروج على الاتفاقات المتفق عليها كمدريد وأوسلو . . إلخ .

ثم نحن نعرف ممارسات تظهر فجأة فى أوقات معينة مثل **(حقوق**

الإنسان) - ويقصد بها حق الإنسان الأمريكى الغربى فى السيطرة على الشعوب الأخرى وثرواتها ، و**(مؤتمر السكان)** ويقصد به (استعمار ثقافى) لعقلية الشعوب الأخرى وفرض الإرادة الأمريكية عليها - كما تكتب وتقرأ فى صحف الغرب نفسه ثم لعبة (**الأقليات**) التى تخرج علينا من آن لآخر للتفرقة بين أبناء الوطن الواحد كلما زادت هوة الخلافات بين العالم الأمريكى والحق العربى :

وفى ندوة أقيمت أخيراً بجامعة عين شمس (مركز دراسات الشرق الأوسط) دعا المحاضر وهو متخصص فى القانون الدولى إلى الانسحاب من الأمم المتحدة على اعتبار أن هذه المنظمة والهيئات التابعة لها أصبحت لا تستطيع القيام بأى دور إيجابى فى حل الأزمات العالمية كما أنها لا تستطيع أن تقوم بدور ما خاصة بعد تغيير العالم من عالم ثنائى القطبية يهيمن على (الفيتو) فيه خمس دول إلى عالم أصبح يهيمن فيه دولة واحدة لها مصالح واحدة ولها توجهات مغايرة للعالم كله . والغريب فى الأمر أن هذا الرأى وجد استجابة واسعة لدى الحاضرين .

***

لقد تغير العالم إذن ..

أصبحت الحملة التى نتحدث عنها كثيرا هذه الأيام رمزاً لقبح الغرب الأمريكى وعنفه وضراوته ووحشيته وبغضه وعنجهيته .

خاصة حين يكون لهذه الحملة الغربية الآن ، مدافعون وأنصار . وخاصة أن هؤلاء المدافعين والأنصار من العرب .

لذا .. انتبهوا !! ◆

هل أجهضت الحملة النهضة .. ؟

السؤال الذى يتردد كثيراً الآن هو :

لماذا نحتفل بالحملة الفرنسية ؟

والسؤال على بداهته يخفى سؤالاً أبعد هو :

هل كانت الحملة من معوقات التطور العربى فيما بعد ؟

عدد كبير من مثقفينا يوافقون ، جاءت الحملة بالحضارة لتؤثر بالإيجاب فى التطور العربى فى ذلك الوقت .

وجماعة أخرى ترفض ، تنفى ، تدرس ، تؤكد ، تغضب ، وهل كانت بلادنا جثة هامدة قبل أن يأتى الغرب ليبعث فيها الحياة ؟

ويلخص هذا كله سؤال استنكارى آخر ، هو :

ألم تأت الحملة - بالفعل - لتجهض التطور العربى الطالع من القرون السابقة وخاصة القرن الثامن عشر ، وقد كان هذا كفيلاً - لو ترك الشرق لشأنه - أن يمضى فى سياق حضارى مغاير للغرب ؟

هذا الاتجاه يجد اهتماماً كبيراً به فى الفترة الأخيرة .

وقد مثل هذا الاتجاه عدد كبير من المثقفين والمؤرخين المصريين (بعيداً عن المدرسة الاستشراقية) ولعل أبرز هؤلاء هو د . رؤوف عباس المؤرخ المصرى المعروف .

فهل أجهضت الحملة - بالفعل - التطور العربى ؟

***

وقد سبق د . رؤوف عدد كبير ممن أكدوا على هذا وحاولوا البرهنة عليه نجد هذا لدى بيتر جران فى كتابه الملحوظ عن الجذور الإسلامية

للرأسمالية فى مصر ، ومكسيم رودنسون عن الإسلام والرأسمالية ، وعفاف لطفي السيد ولويس عوض فى كتابه عن الفكر المصرى ، ومحمود أمين العالم وسمير أمين وعبد الرحيم عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم وليلى عبد اللطيف ومحمد عزباوى . .

وأكثرهم يعتمد على كتابات المقريزى وابن تغرى بردى والظاهرى والعمرى وابن دقماق كما يعودون إلى قوائم المخطوطات قبل الحملة الفرنسية فى دار الكتب وجامعة الأزهر ومكتبات الاسكندرية وسوريا وإسطنبول وسجلات المحاكم الشرعية . . إلخ .

ولعل د . رؤوف عباس كان آخر من أكد على هذه الفرضية سواء فى الكتاب الذى انكب على ترجمته ونشر منذ فترة وجيزة (تجار القاهرة فى العصر العثمانى) من تأليف د . نللى حنا ، أو فى تبنيه لكتاب بيترجران ومراجعته ، قبل ذلك ، عد ترجمته إلى العربية أيضاً فى عديد من كتاباته المتناثرة أو الرسائل التى أشرف عليها فى هذا الاتجاه .

فلنتمهل أكثر عند (تجار القاهرة فى العصر العثمانى) ونحن نحاول أن نجيب عن السؤال المطروح حول فرضية إجهاض الحملة للتطور العربى فى سياق تاريخى مغاير للتطور الغربى

***

من البداية يؤكد الكتاب هذه الفرضية ، ومنذ التقديم يعجب د .رؤوف أن يكون المؤثر الخارجى هو الفاعل فى تحريك عجلة التغير ، والمؤثر الخارجى هنا هو الحضارة الغربية «وكأن مصر كانت عاجزة تماماً عن الحركة ، قعيدة لمدة ثلاثة قرون ، فلم تنهض إلا بعد ما مد الغرب إليها يده» وهو يستطرد – حول هذا الفرض الخاطئ فيضيف أن :

والمجتمعات يمكن أن تتطور وفق سياق تاريخى مختلف عن النهج الغربى، كاشفة عن فساد الاستنتاجات التى توصل إليها المستشرقون

في دراساتهم حول العصر العثماني عامة ، وتطور مصر في ذلك العصر خاصة ، مؤكدة أن الثقافة الوطنية العربية الإسلامية توفرت لديها في هذا العصر مقومات التطور ، وأن قدوم الغرب لم يكن بعثاً للحياة في مجتمعاتها ، وإنما كان من معوقات تطورها» .

وبين صفحات الكتاب تتمهل بنا الكاتبة نيللي حنا عند عديد من الهياكل والمؤسسات التجارية والبحرية والعلمية .. إلخ لتعبر لنا عن هذه الفرضية ، وسوف نضرب لها أمثلة على ذلك :

- كانت مرونة الحركة بين الولايات - ومنها مصر - باعثاً على تأكيد المد الإيجابي للتطور، فكما نجد هذا عند التجار وغيرهم من أصحاب الحرف ، كذلك نجده - خاصة - لدى العلماء ، فقد كانوا كثيري الانتقال من مركز علمي إلى مركز علمي آخر (انظر تراجم الغزى في القرن السادس عشر) ، والاستقرار بصورة مؤقتة أو دائمة في إحداها للعمل بالتدريس أو القضاء ، وهم في ذلك يحتفظون بأوضاعهم الاجتماعية ، بغض النظر عن المكان الذى يقيمون فيه وهو ما ينتقل بنا إلى عامل التعليم .

وأهم صور التعليم كانت الكتاتيب التى كانت منتشرة بشكل واسع قبل قدوم الحملة إلى مصر ، وهو ما يجعل هذه المناطق للتعليم متاحة لأكبر عدد من الأولاد الصغار حيث كانوا يقصدونها لتعليم القراءة والكتابة والحساب .

وفى الجانب التجارى بدا واضحاً أن ظاهرة البيوت التجارية العائلية المشتغلة بالتجارة الدولية كانت معروفة تماماً ، ويضرب لنا الكتاب مثالاً بعائلة الكارمية الذين اشتغلوا بالتجارة فى القاهرة المملوكية ، كانوا ينتظمون فى شبكات تجارية عائلية ، ويتنقلون فى شبكات تجارية امتدت إلى آسيا وسواحل البحر الأحمر فأفريقيا مما يشير إلى عظم

التأثير التجارى الذى كان يمكن أن يمثل امتداده الطبيعى تطوراً إيجابياً ، بل إن بعض البيوت التجارية - وضرب لنا الكتاب أمثلة - كانت تصدر نسبة كبيرة من البضائع التى يجلبها من الهند إلى بعض موانى الدولة العثمانية وأوربا عن طريق الإسكندرية ورشيد ودمياط ، وكان لكل مؤسسة تجارية وكيل تجارى فى طرف من أطراف الأرض ، وكانت تتنوع فى هذه المحاصيل وتتكاثر ، بل تشير الوثائق أنه كان للتجار الشرقيين جاليات بالبندقية وفيرارة وانكونا وبيزا ونابلى بما يعنى أن المجال الجغرافى كان متسعاً .

ومع أن منصب (شاهبندر التجار) لم يكن وراثياً فى القرن الثامن عشر ، فإن الإجراءات التى كانت تتبع فى ذلك اتفقت مع تلك التى كانت تتبع عند تعيين أو انتخابات شيوخ الطوائف الأخرى ، حيث كان الشخص يختار بإجماع أعضاء الطائفة ، وتصدق المحكمة الشرعية على ذلك الاختيار . ونظرا لأهمية الشاهبندرية ، لابد أن يكون للسلطات دور فى إقرار الاختيار وهو ما كان يؤكد أنَ المد التجارى كان يمضى فى سبيل مؤسسى ، يحكمه إما الاتفاقات التجارية المبرمة بين الطرف المصرى والطرف الغربى ، أو بين الطرف المصرى تحت إشراف الحكومة المصرية والطرف الآخر أيا كانت جنسيته .

وتلاحظ الباحثة تأثير الوكالات التى كانت قائمة على نطاق واسع ، فقد كانت تقع فى مناطق سكنية تتوفر فيها كل وسائل الراحة لإنجاز العمل المراد ، فكانت تقع وحدات السكن ، وغرفة أو غرفتان للسلع وما إلى ذلك لإقامة التجار الذين يأتون من بلاد بعيدة لعقد الصفقات التى يطلق عليها الصفقات التجارية (تجار الترانزيت) .

وتشير الدراسة إلى أن التجار كانوا يتجهون إلى تسجيل معاملاتهم كتابة وتوثيقها بالمحاكم وبوجه عام ، فإن النظام التجارى كان يتسم

بالضخامة والتوسيع والمرونة إلى حد بعيد ، خاصة ، وقد توفر لهم مؤسسات تجارية وقانونية (قضائية) تؤكد وجودهم وكانوا : «يمارسون نشاطهم في إطار نظام وطني ..»

وكان أبرز الملاحظات في ذلك تغيير الأنشطة الاقتصادية ، وهي تغييرات جاءت من داخل النظام لا من خارجه «فلم تأت نتيجة لتأثير أوربي أو تنفيذاً لأوامر الدولة العثمانية ، وبالإجمال كان النظام حيوياً ومرناً إلى حد كبير ، ويلاحظ أن زراعة السكر للتوريد وصلت إلى درجة بعيدة ، ثم امتداد تلك الظاهرة إلى القطن والكتان ، كذلك كانت المنسوجات المصرية تصدر بكميات كبيرة إلى الأناضول وأوربا ، وحتى منتصف القرن الثامن عشر كانت مصر تصدر كميات كبيرة من النيل إلى فرنسا ، حيث كانت توزع هناك في البلاد الأوربية الأخرى».

لقد كانت مصر تمضي في تطورها الطبيعي بعيداً عن المد الغربي الصاعد وهو ما كان يعكس في مرة العلاقات الوثيقة بين التجار ، وفي مرة براعتهم الاقتصادية في التعامل مع الخارج ، وفي مرة العلاقات التي تحولت إلى علاقات قوية بين التجار والحكام مما يشير إلى أن تطوراً ما كان على وشك الحدوث في البنية الرأسمالية الخاصة بنا .

لقد كانت مصر تمضي في تطورها الطبيعي بعيداً عن رأسمالية الغرب المتربصة .

***

نلاحظ أن هذه الدراسة تتفق مع دراسات أخرى سبقتها كدراسة بيتر جران التي ركزت أكثر على العامل الثقافي - من أن ثمة تغييرات تجارية هامة حدثت قبل فترة التوسع في استيراد النماذج الأوربية التي بدأت بالحملة الفرنسية ، وبذلك ، تصبح هذه الفترة ، خاصة في القرن الثامن عشر ، قاعدة التطورات التي كان يمكن لها أن تتطور أكثر ، كما

لا يمكن فهم النهضة فى القرن التالى دون فهم هذه التغييرات هنا .

إن هذا يشير - بوضوح شديد - إلى أن عملية التحديث التى وقعت قبل عام ١٨٠٠ اختلفت عن تلك التى حدثت بعد ذلك التاريخ ، وأن ما حدث من انقطاع نراه يتمثل فى قيام الدولة الوطنية على النحو الذى كانت عليه فى القرن التاسع عشر ، والتطور التكنولوجى وأثره على المجتمع ، وأن ذلك الانقطاع حدد ملامح اتجاهات تجربة التحديث عندنا .

وهو ما يمثل - بوضوح - قدر التغيير الذى حدث بمجىء الحملة ، ثم شروع محمد على فى تغييراته التالية .

إنها تغييرات ارتبطت بالمد الغربى سواء فى مجىء نابليون إلى مصر أو فى فهم كيفية التطور الذى حدث بعد ذلك فى عصر محمد على ويعود بنا د . رؤوف عباس هنا إلى تساؤل هام - يطرحه الكتاب - هو :

ما هى العوامل التى حالت دون حدوث تحول رأسمالى فى العالم العربى خلال ذلك العصر ؟

واستطرادًا لهذا ، يشير إلى :

أن التحولات التى أحدثها محمد على لم تنشأ من فراغ وخاصة انه لم يعتمد على رأس المال الأجنبى فى إقامة البنية الأساسية لاقتصاد السوق الخاضع لإدارة الدولة ، وإنما اعتمد على موارد مصر وحدها طوال حكمه ، وحقق التراكم الأول اللازم لإقامة تلك البنية ، من خلال إعادة تنظيم الاقتصاد المصرى وتوجيه بعض قطاعاته وجهات جديدة ،

وهنا يطرح عدة أسئلة تحمل إجاباتها :

فمن أين استطاع الاقتصاد المصرى فى مطلع القرن التاسع عشر أن يوفر كل تلك الموارد إذا كان اقتصاداً تقليدياً راكداً ؟ وكيف استطاع المجتمع المصرى ان يتجاوب مع إصلاحات محمد على إذا كان مجتمعاً يعانى من الاضمحلال والتخلف؟ بل كيف استطاع العالم المصرى أن

يستوعب الأساليب الفنية الحديثة فى مصانع محمد على إذا كان عطلاً من الخبرة ، مفتقراً إلى الاستعداد ؟

إلى آخر هذه الاسئلة التى لا نستطيع الإجابة عنها دون فهم التطور الذى كانت تمر به البلاد قبل مجيء الحملة .

لقد كان بوسع مصر أن تصنع نهضة تقوم على الهوية والوعى بالذات فى الإطار العام لولا ان جاءت الحملة فسعت إلى إجهاض هذه النهضة فأدخلت إلى الرأسمالية الغربية عنوة بعد ذلك . .

***

يلاحظ بيتر جران أن أحد الدبلوماسيين فشل فى الإفراج عن رسالة من الأقمشة من الجمارك المصرية فى مارس ١٧٩٨ وبعد عام أرسلت فرنسا حملتها إلى مصر وهذا يضيف إلى الحافز الاقتصادى حافزاً استعمارياً خالصاً ◆

النهضة لو لم يأت الغرب !!

يتراجع عدد كبير من أنصار الاحتفال بالحملة الفرنسية - الاستعمارية.. سواء في الجانب المصرى أو الفرنسي، وهذا الموقف وإن بدا غير منظم في الجانب المصرى، فإنه يبدو أكثر وضوحاً في الجانب الفرنسي.

يبدو هذا من إعادة صياغة العنوان الذى كان متفقاً على إجراء الاحتفال تحته إلى **(مصر وفرنسا / آفاق مشتركة)** .

ويبدو هذا فى موقف الفرنسيين أنفسهم فمن يستمع إليهم أو يقترب منهم يرى أنهم يشيرون أن الاتفاق الذى تم إنما يقع على الجانب التاريخى / الثقافى ، وأن سوء التوقيت هو المسئول وراء هذا الفهم ، وهو ما يبدو فى تصريحات المتفرنسين أو الفرنسيين المقيمين بالقاهرة أو لدى العاملين الرسميين فى المراكز الثقافية والاجتماعية كمركز البحوث العلمية (سيداج) الذى رفض أخيراً الاشتراك مع الجمعية التاريخية للاشتراك فى موضوع عن الحملة الفرنسية .

كما أن متابعة ما يصدر فى فرنسا وصحفها فى نهاية القرن العشرين يشير إلى هذا ، فالكثير لا يتحدثون عن حملة استعمارية بقدر ما يتحدثون عن دور ثقافى ، وعلى سبيل المثال ، دعى المؤرخ الفرنسى المعروف أندريه ريمون فى فرنسا للمشاركة فى هذا الاحتفال بذكرى الحملة ، فما كان منه إلا أن أعرض بغضب ، وصرح بأنه سيقيم مؤتمراً عن مصر فى القرن التاسع عشر وجذورها فى القرن الثامن عشر .

ماذا يعنى ذلك ؟

يعنى أن اتخاذ هذه المواقف يشير إلى رغبة ملحة فى الجانب الغربى لتحسين العلاقات المصرية الفرنسية فى عصر (العولمة) الأمريكية **وتأكيد الثقافة الفرنسية فى زمن الفرانكفونية** وإخفاء السمة العنصرية فى الوعى الغربى وليس إيماناً - بالضرورة - عن اعتقاد مكين - غير مصرح به الآن - عن دلالة الاحتفال بالحملة أو التراجع عن الجانب الاستعمارى فيها وإعادة النظر إلى التاريخ بعيون فرنسية ولعل آخر مثال على ذلك : الدراسة التى صدرت للدكتورة ليلى عنان (سنعود إليها فيما بعد) .

هذه ملاحظة عامة يأتى بعدها أن نحاول استكمال الإجابة عن السؤال الذى طرح من قبل عن مدى تأثير الحملة على تطورنا الفكرى قبل مجيء الحملة إلى مصر .

***

وهذا السؤال يمكن تلخيصه على النحو التالى :

ألم تأت الحملة الفرنسية لتجهض التطور العربى الطالع من القرن الثامن عشر ، وقد كان هذا كفيلاً - لو ترك الشرق وشأنه - أن يمضى فى سياق حضارى مغاير للغرب ؟

ماذا كان سيحدث .. لو لم يأت الغرب ؟

وقد حاولنا الإجابة عن هذا السؤال عبر أكثر من مصدر ، غير أن العودة إلى عديد من المصادر الأخرى ، يضع بين أيدينا كثيراً من الإجابات التى تؤكد وجودنا الحضارى / القومى .

وقبل أن نعاود الإجابة لابد أن نتمهل أكثر عند السبب الشائع الذى جعلنا نرى أن العصر العثمانى كان (كله) عصر تخلف وجمود حتى وصول الحملة .

الشائع كان هو ذلك والواقع كان شيئاً آخر .

***

كاد يكون شائعاً لدينا جميعاً - شرقيين وغربيين - أننا لم نطلع قط من عصور التخلف العثماني وما ترتب عليه من أن العلوم التي كانت تدرس في الأزهر لم تكن لتخرج عن العلوم الدينية وفي أحسن الحالات بعض علوم اللغة .

أما العلوم العقلية من منطق وكيمياء ورياضيات لم يكن ليأبه بهذا أحد ، فضلاً عن اتخاذنا كثيراً من المصادر الغربية مصادر معرفية وحيدة بيد أن تحميل العصر العثماني كله فيه غبن كبير ، فنحن نستطيع أن نتحدث بمثل هذا في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وإلى حد كبير النصف الأول من القرن الثامن عشر .

أما النصف الأخير من القرن الثامن عشر بوجه خاص ، فإننا نستطيع أن نعيد النظر فيه إلى التاريخ الفكري لنا ، لنرى أن أخصب فترات تاريخنا كانت هذه الفترة - النصف الثاني من القرن الثامن عشر بوجه أخص ، وقبل أن تأتي الحملة الغربية إلينا لقطع سياق التطور العربي . وقد لا تكون هذه القرون الثلاثة قائمة بهذا الشكل غير أن الفهم الشائه حول المعرفة إلى حقيقة ، وانتفت من أذهاننا أن تكون الفترة العثمانية تشي ببارقة من الضوء .

فالقرون العثمانية كانت شديدة القتامة ، وهو ما كان يعود - في المفهوم العام - إلى الحفاظ على العلوم الدينية واللغوية والمحافظة عليها ، غير أنها لم تفتقد عديداً من ومضات الضوء من آن لآخر .

يؤكد هذا أن عديداً من القضايا كانت تفهم من فريق من العلماء بطريقة ، غير أنها عند البعض الآخر لم تفقد الوجه الإيجابي للقضية .

ربما يفسر هذا نقاط الخلاف بين الجانبين المصري والفرنسي ، وبين المصري والمصري كما نرى اليوم .

إذن ، كان النصف الأخير من القرن الثامن عشر عصر تطور حضاري

وتقنى - على عكس ما هو شائع - فى عديد من المجالات ، وهو ما كشفت عنه عديد من الدراسات التاريخية يأتى الجبرتى فى مقدمتها ، ويمضى فى خط متصل - على سبيل المثال الدكاترة شفيق غربال وأحمد عزت عبد الكريم وأحمد عبد الرحيم مصطفى وعبد العزيز نوار وغيرهم وآخرهم كان د . عبد الله عزباوى الذى حصلت أطروحته عن الأزهر فى القرن الثامن عشر على درجة الدكتوراة وهو ما نتمهل عنده الآن .

***

إن أكثر ما يلاحظ أن الأزهر فى نهاية هذا القرن - الثامن عشر - لم يعرف درس العلوم العقلية كالرياضيات والفلك والطب ، لأن مثل هذه العلوم تحتاج - كما يلاحظ - إلى آلات باهظة الثمن وغالبية طلبة الأزهر فقراء لا يقدرون على شرائها .

ومن هنا فقد كانت للمتخصصين ، وكان هؤلاء يتقاضون لذلك أجراً خاصاً نظير ذلك مثل هذا الشيخ الذى كان يرفض تدريس الرياضيات أبداً ، اللهم إلا بنظير أجر خاص لتقديره لقيمة هذا العلم ، قائلاً : (أنا لا أبذل العلم رخيصاً)

كذلك يمكن ملاحظة أن العلوم العقلية كانت توجد فى الكتب المؤلفة لتعليم البنات ، كذلك استمرت دروس الطب فى المارستان .

وكما كان الجبرتى أحد هؤلاء الذين اهتموا بالعلوم العقلية يذكر فى تاريخه أيضاً أنه كانت هناك مدرسة فى علم الفلك على رأسها رضوان أفندى الفلكى (١٧١٠) وقد أخذ على يديه أغلب المشتغلين بالفلك فى مصر فى القرن الثامن عشر .

ودارس هذه الفترة يلاحظ تقدماً فائقاً فى علم الفلك بوجه خاص حتى تشير المصادر إلى أن الفلكيين المصريين كانوا بارعين فى عملهم ، وأنهم استخدموا آلات جديدة استطاعوا أن يطوعوها لعلمهم ويضيفوا

إليها وقد بلغ تقدم الفلك فى مصر فى نهاية القرن الثامن عشر إلى درجة أن أحداً لا يستطيع أن يقلل منها .

وتزخر تراجم هذه الفترة ومؤلفاتها بعشرات العلماء فى هذا العلم وتفوقهم فيه أيضاً ويذكر الجبرتى عدداً كبيراً من العلماء الذين ألفوا فى علوم الرياضيات والكيمياء والطب والمساحة وعلم يبحث فى خواص الأعداد يسمى (لارتما طيقى) بل عرف علم الهندسة وشواهده الكثيرة فى العمائر الشامخة الراقية فضلاً عن علم الفرائض (المواريث) وهو يحتاج إلى معرفة واسعة بالرياضيات والفرائض ، فإلى جانب التطور الذى حدث فى علم التاريخ والإصلاح الدينى والموسوعات والعلوم الحكمية (كانت تطلق على الفلسفة والكيمياء والطب والصيدلة وتقويم البلدان أى الجغرافيا) لم تعد مناخاً مزدهراً .

وإذا توقفنا عند علم الرياضيات تحديداً - سنعرف أنه وُجد فى مصر فى نهاية القرن الثامن عشر - عدد كبير من العلماء الذين ألفوا فى هذا العلم ، فمن الغريب أن نعرف أن الشيخ الجبرتى الذى عرف ببراعته فى علم التاريخ والتراجم له مؤلفات هامة فيه اشتهر باهتماماته بعلم الرياضة .

كذلك تدلنا مصادر هذه الفترة على عدد آخر من هؤلاء المهتمين بالرياضيات منهم الشيخ محمد الغمرى الذى ألف فى الرياضيات .

فضلاً عن مؤلفات أخرى فى الفلك أو الكيمياء ، فمن مؤلفاته فى الرياضيات ينقل لنا د . عزباوى عن إسماعيل البغدادى بما عرفناه من القواعد الحسابية فى تحويلات الأكباس الرومية إلى الأكباس المصرية والقواعد المقنعة فى تحويلات المقادير الأربعة .

ونمضى فى نهاية القرن الثامن عشر فى هذا السياق مع عدد كبير من جميع الطبقات الذين عرفوا العلوم العصرية والعقلية فهناك عدد من الطبقات الأرستقراطية عرفوا باهتماماتهم بالرياضة والفلك ورسم

عدة مزاول بالجامع الأزهر ، بل عرف فى مصر العديد من العلماء المهتمين بهذه العلوم المشجعين عليها من أمثال الشيخ أحمد أبو الإسعاد السادات الذى عرف عنه اهتمامه بالفلك .

الأكثر من ذلك أن التاريخ يقول لنا إنه كلف الفلكى الشهير الشيخ مصطفى الخياط بتحريك كواكب ثابتة حتى عام ١٧٦٦ وأعد له من أجل ذلك حجرة خاصة وتكفل بمصروفات أسرته عدة أشهر .. إلخ .

ويلاحظ هنا بشكل ملفت أنه رغم أن علماء القرن الثامن ضيقوا على أنفسهم فى العلوم العقلية ، فإن النظرة العامة ترينا أن هذه العلوم نالت حظاً وافراً فى نهاية القرن الثامن عشر ، واهتم بها عدد كبير من المشايخ أيضاً حتى إن رفاعة الطهطاوى يعلق فيما بعد عن هذه الفترة مشيراً إلى شيخ الأزهر فيقول :

«فانظر إلى هذا الإمام الذى كان شيخ مشايخ الجامع الأزهر ، وكان له فى العلوم الرياضية وعلم الهيئة الحظ الأوفر مما تلقاه من أشياخه الأعلام فضلاً عن أن أشياخه كانوا أزهرية ولم يفتهم الوقوف على حقائق هذه العلوم النافعة فى الوطنية» .

كما جاء فى (مناهج الألباب) :

وليس من المصادفة فى شيء أن يكون الشيخ حسن العطار أكثر علماء عصره تعرفاً على العلوم العقلية ، والحث عليها ، كثير الأخذ من علماء عصره من المجددين ، كثير الرحلات إلى حيث وجودها ، كثير تدريس العلوم العقلية فى الأزهر حاثاً تلاميذه على ضرورة الأخذ بالعلوم العقلية ، كثير التقرب من الفرنسيين إبان وجودهم فى مصر والدخول إلى معاملهم والتعرف على علومهم الحديثة كما زار المجمع العلمى الفرنسى ..

ليس من المصادفة أن يكون هذا الشيخ هو أستاذ رفاعة الطهطاوى الذى

حثه على الأخذ من العلم والتعرف على ما ينقصنا منه فى سياقنا الحضارى وقد لعب دوراً رائداً هو وتلميذه فى القرن التاسع عشر فى هذا الصدد ، فحين كان تلميذه الطهطاوى على وشك لعب دور تنويرى فى مصر بعد عودته من بعثته من الخارج كان هو شيخا للجامع الأزهر عام ١٨٣١ .

على هذا النحو ، كان العطار أكثر علماء القرن الثامن عشر تفهماً لدور التطور فى العلوم العقلية ، وصاحب رؤية واضحة فى التغيير يستفيد بها من العلوم العصرية التى يستطيع التطور العربى استيعابها دون حملة عسكرية أو سياسية تقوم بدور سلبى .

يقول د . عزباوى إن هذه النهضة التى عرفتها مصر فى أواخر القرن الثامن عشر قد أصيبت بقطع أو انفصال وقتى عند مجىء الحملة الفرنسية إلى مصر .

***

ما معنى هذا ؟

الإجابة أن نهاية القرن الثامن عشر شهدت تطوراً عالياً .

فقد كان التجديد الفكرى يتمثل فى الحركة السلفية فى الجزيرة العربية ، كما كان الأزهر وعلماؤه يعيشون فترة ازدهار اقتصادى يعينهم على الاهتمام بمثل هذه العلوم ، فضلاً عن أن التطور الفكرى العام كان يسير فى خط صاعد سواء فى الأزهر أو خارجه ، فى علوم القرآن أو العلوم الفقهية أو التصوف أو علم اللغة ثم فى العلوم العقلية ، بل إن دارس هذه الفترة التالية من القرن التاسع عشر لاحظ على سبيل المثال - ان حالة الفلك فى مصر فى القرن الثامن عشر كانت أفضل منها فى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر وهو ما كان يمكن أن نتطور معه أكثر .

هذا ... لو لم يأت الغرب !!

***

هنا لابد من التوقف عند قضية بعينها بشكل أكثر اتساعاً ، فإذا كنا فى الصفحات السابقة آثرنا الإشارة بشكل رأسى إلى أنواع العلوم العقلية فيما يتمشى مع النهضة الغربية للوصول إلى الأثر السيئ الذى واجهته حال اصطدامها بالحملة الفرنسية ، فيجب أن نتمهل أكثر عند قضية بشكل أفقى لنرى ، إلى أى مدى كان يمكن للتجديد الفكرى والإصلاح الدينى أن يصل إلى أقصاه فى هذا الصدد . وسوف تكون هذه القضية هى قضية التصوف .

كانت قضية الصوفية التى بلغت أوج الفساد حين فشى فى حلقات الصوفية ظاهرة الرقص والغناء على الآلات الموسيقية فى حلقات الذكر .

ومع أن عدداً من العلماء كان يؤيد هذه الظواهر ، فنحن لم نعدم جماعة أخرى بدت معارضة وواعية لهذا الوجه السلبى للصوفية .

لقد وجدت هذه المسألة فى القرن السابق لها أنصاراً كثيرين ، فعدد كبير من علماء الدين أيدوا الوجه السلبى للقضية ، بل ذهبوا إلى حد معارضة المعترض على الممارسات السلبية التى تقوم بها هذه الفرق التى تنتمى إلى الصوفية وترتكب أفعالاً لا علاقة لها بالدين الحنيف ، وكانت دعواهم فى ذلك - كما جاء فى أطروحة دكتوراة فى منتصف السبعينيات من تأليف د . عبد الله عزباوى - أن أصحاب الباطن ينظرون إلى حقيقة كل شىء فيسمعون من كل شىء تسبيح الله وتنزيهه .. ولكن أهل الظاهر لا يفقهون ، إلى آخر هذه الحجج التى كانت تؤكد الملامح السلبية لمتصوفى هذه الحقبة .

وهذا الوجه السلبى هو الذى رسم - فيما يبدو - الوجه العام المألوف الذى رأينا فيه العصر العثمانى كله .

لقد ظهرت جماعات صوفية كثيرة ترتكب كثيراً مما يتنافى مع

الدين الصحيح ، ويذهب أصحابها فى الدفاع عنها إلى حجج كثيرة يحاولون الخروج بها من القرآن الكريم إلى درجة أن بعض مشايخ هذه الفترة المظلمة وهو الشيخ عبد الرحمن العيدروس المتوفى بالقاهرة فى نهاية القرن الثامن عشر (١٧٧٨م) يكتب رسالة يؤيد فيها جواز الذكر والرقص أثناء الذكر (كان الأزهر قد أكد هذا قبل ذلك) ، فإذا بالشيخ العيدروس يؤكد هذه المظاهر وينسبها إلى التصوف الصحيح ويبلورها فى رسالة سماها (تشنيف الأسماع ببعض أسرار السماع) أيد فيها وجهة نظر الصوفية . (تزخر رحلات الرحالة العرب ومؤرخيها بكثير من هذه الروايات) .

هناك أمثلة كثيرة لهذا الوجه السلبى للصوفى ، وهو الوجه الذى كاد يصبغ العصر العثمانى كله بصبغته ، وأصبحنا لا نذكر هذا العصر إلا ونذكر معه هذه الترهات ، ومما أسهم فى ذلك أن عديداً من الرحالة الغربيين وقناصل الدول الغربية كانوا يكتبون ويرسلون إلى الغرب بما يسىء إلى هذه الفترة ، فلا يذكر إلا هذا الوجه السلبى ، نستطيع أن نجد هذا فى كثير من المصادر - وخاصة الغربية منها - غير أن الإشارة إلى بيتر جران بوجه خاص يؤكد لنا هذه الحقيقة .. ونستطيع أن نذكر الرحالة المعروف (فولنى) على سبيل المثال لنرى كيف تضمنت رحلته عن الشرق الإسلامى وخاصة مصر الكثير من السلبيات التى يتنبه إليها دون ان يتطرق لوجه منير مضىء ، فى الوقت نفسه بعضهم كان يكتب عن جهل شديد لما كان فى الواقع ، وبعضهم الآخر كان يكتب عن سوء نية ، وبعضهم الثالث كان لدفع حومته إلى الاستيلاء على البلاد ، خاصة أن هذه الفترة عُرفت بشدة الصراع الدولى على مصر ، حيث كانت تشغل حيزاً كبيراً من التجارة العالمية وعلى هذا النحو ، أصبحنا ، فإن القرون السابقة للحملة الفرنسية قرون ظلام وفساد وتخلف دون التنبه إلى الوجه

الآخر الذى يزداد إشراقاً كلما اقتربنا من القرن الثامن عشر ، حتى إذا ما وصلنا إلى النصف الأخير من القرن الثامن عشر ، كان التجديد الفكرى، ومعرفة العلوم الرياضية والفكرية قد وصل إلى قمته .

فى هذا الوقت جاءت الحملة الفرنسية لتقطع الامتداد الذى كان فى سبيله لصنع نهضة أكثر خصوصية من نهضة القرن التالى .

بيد أننا قبل أن نصل إلى الحملة لابد من أن نتوقف عند الوجه الآخر / المشرق لهذه الفترة ، وعن نفس القضية ، قضية التصوف ...

***

تؤكد لنا كثير من مصادر هذه الفترة ومراجعها أن الوجه الصوفى الواعى كان موجودا وقائما .

لقد كان يعلو فى بيئة الصوفى المتخلف صوت الصوفى الثائر ، ربما كان من أهم هذه الأصوات كان صوت الشيخ المعروف صفى الدين ، كان الشيخ محمد صفى الدين الحنفى الذى كان دائب مهاجمة المتصوفة الذين اتخذوا الرقص واللعب ديناً وخلطوها بالعبادة ، وراح يؤلف فى هذا رسالة سماها (الصاعقة المحرقة) ذكر فيها كثيرا من الممارسات السلبية من مثل أن يتوجه عدد كبير من هؤلاء إلى الحلقة ويدورون مركبين أيديهم إلى وراء وأمام وهز رءوسهم (كما ذكر د . عزباوى عن جمال الدين الشيال) .

ومما يلفت النظر أن كثيرين من مشايخ هذه الفترة اعتنقوا هذا الفهم، وراحوا يهاجمون الممارسات البغيضة للصوفية وأشكالها الكثيرة ، ومما يلفت النظر فى هؤلاء - كما لاحظ د . عبد الله عزباوى - أنهم كانوا متأثرين بالدعوة السلفية التى سادت فى هذه الفترة أكثر ، فمع أنهم وصلوا إلى درجة تحريم الدخان فى بعض الأحيان فإنهم فى الوقت نفسه لم يترددوا فى مهاجمة هذه العوائد السيئة

لمتصوفى عصرهم ، وللدكتور توفيق الطويل - رحمه الله - دراسة ضخمة عن هذه الحقبة يشير فيها إلى الوجه السلبى الذى تعدد كثيراً فى هذه الفترة ، ومع هذا ، فإن الوجه الإيجابى للبحث عن الصوفى الثورى لم نعدمه فى تلك الفترة .

***

إن (الصاعقة المحرقة) يجب أن تلحق - كما كان يرى الكثير من مشايخ نهاية القرن الثامن عشر - بهؤلاء الذين يتخذون سمات خرافة لا تنتمى للدين ، وتكرس للجمود والتخلف ، وفى هذا نستطيع أن نذكر بعد صفى الدين ، الشيخ على الصعيدى الذى ألف رسالة أخرى سماها (فى حكم الرقص والغناء فى الذكر) كانت عبارة عن فتوى ضد هذا الجانب السلبى وراح يسهب فيها كثيراً لتأكيد موقفه متنقلاً بين كبار المشايخ المعتدلين الواعين فى عصره ، وفى هذه الفتوى ذكر طويل لهجوم حاد على هذه البدع وراح يعددها الواحدة بعد الأخرى واصفاً أصحابها بهذه العبارة (وأنت .. غلبكم الجهل واستولى الشيطان على قلوبكم وزين لكم ما أنتم عليه من القبايح التى لا يقول بها إمام من الأئمة) ، وهنا يقول د . عزباوى إنه يمكن اعتبار فتوى الشيخ على الصعيدى هذه نموذجاً لتلك الرسائل والفتاوى التى ألفها بعض فقهاء القرن الثامن عشر لنقد الطرق الصوفية المغالية ، والنهى عما ترتكبه من البدع ، بما يلاحظ معه أن التربة المصرية فى نهاية القرن الثامن عشر حينئذ كانت قد أصبحت أكثر ملائمة لانتشار دعوات الإصلاح الروحى والاجتماعى .

وهذه الصاعقة التى قام بها العلماء ضد الشعوذات الصوفية (وعجائب الجبرتى زاخرة بهذه المقاومة) ، نجدها - أيضاً - لدى عدد من الصوفيين أنفسهم ، ومن أشهرهم كان السيد مصطفى البكرى (المتوفى ١٧٤٨) وقد تصدى لهذا فى مؤلف سماه (السيوف الحداد

فى أعناق أهل الزندقة والإلحاد) راح ينتقد فيها بعنف هذا الوجه السلبى لهؤلاء الذين يدّعون التصوف «مع أن غالبهم لا يدرى الفرق بين الخوف والتخوف» .

***

بيد أن هذه الصاعقة المحرقة أكدت تنامى تيار التجديد الفكرى فى مجالات أخرى كثيرة ، جاوزت التصوف إلى كثير من العلوم العقلية من علم الفلك إلى الصيدلة إلى الرياضيات إلى المنطق إلى الفلسفة(*) .. إلى غير ذلك فى النصف الأخير من القرن الثامن عشر ◆

(*) على سبيل المثال :

فى الجبر والمقابلة : (الياسمينية "أرجوزة" تأليف ، عبد الله بن الحجاج المعروف بابن الياسمين ٥٦١٥ / ١٢٠٤م .)

وفى الهندسة : (أشكال التأسيس ، تأليف ، محمد بن أشرف السمرقندى حوالى ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣م.

وفى الفلك "الهيئة" : (رسالة السبط فى العمل بالربع المجيب "الرسالة الفتحية فى الأعمال الجمعية"المؤلف محمد بن محمد المعروف بسبط المارديني تـ ٨٩٠ هـ / ١٤٩٠ م .)

وفى الطب : (كامل الصناعة ، تأليف على بن العباس المجوسي تـ ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م)

وانظر على سبيل المثال ، عبد الله عزباوى ، الحركة الفكرية فى مصر فى القرن ١٨ بحث لنيل الدكتوراة ، كلية الآداب جامعة عين شمس ١٩٧٦ رسالة غير منشورة .

الغرب .. وهم التنوير !!

لفت نظرى ، بشكل شخصى ، أن عدداً ليس بالقليل من القراء كانوا - رغم الكشف عن الجوانب الدامية للغرب إبان الحملة الفرنسية - يلوموننى بدرجة تصل إلى العنف لرفضى الجانب التنويرى الذى تركته الحملة (هكذا) ، وأنه لولا الغرب لظللنا - يؤكدون فى عصبية متكررة - فى قبو العصور المظلمة .

إنها الأسطورة التى صنعها الغرب وراح يصدقها .. فرحنا نصدقها .. وأدهش أن يعيش الغرب خاصة الفرنسى منه حقب بعيدة فى وهج الأسطورة ، لكن أدهش أكثر لمن يريد عندنا أن يتوحد مع الوهم ويتآلف معه (وهى حالة تعرفها الخبرة النفسية) .

ورغم أن وضعاً أقرب إلى هذا عرفناه منذ فترة مبكرة من هذا القرن مع الحلم الأمريكى وأسطورته التى حاول نسجها .. فإننا رغم تتابع وجوه الغرب الأمريكى البشع وامتداداته الفرانكفونية السياسية فى العالم - فإننا مازلنا نتحدث عن التنوير مرة .. والغرب المتقدم مرة .. والحضارة الفرنسية المعاصرة مرة ومرة .

إنه وهم التنوير واختراع الأسطورة .

***

وقد كان أكثر من عبّر عن هذا الجانب فى الفترة الأخيرة د . ليلى عنان فى كتابها (*) او مما نشر من كتابها الهام عن الحملة الفرنسية .. إنها عرضت لوهم التنوير الذى نتحدث عنه - لا نزال - ولاختراع

(*) الحملة الفرنسية تنوير أم تزوير ، دار الهلال ، القاهرة ١٩٩٨ ، ج ١

الأسطورة التى ننسجها - لا نزال - فى وقت بدأ فيه المؤرخون الجدد فى فرنسا كـ(فرنسوا فوريه ودينى ريشيه وروجيه دو فريس .. إلخ) ينزعونه من أفكارهم وينقلبون عليه .

ومن هنا ، فإن ما سعت إليه هنا د . ليلى عنان يؤكد حقيقة الغرب لنا ، خاصة ، أن مصادرها فى أغلبها فرنسية خالصة .

ثم لا ننسى أنها - كما تخبرنا - تلميذة المدارس الفرنسية ، ومن ثم ، فإنها تحاول - فيما نشر - أن تؤكد خلق الأسطورة الكاذبة عبر هذه المصادر سواء فى التاريخ أو الأدب ، ثم تسعى - فيما لم ينشر - كما وعدتنا على غلاف كتابها .

(ترى متى ينشر ؟ وهل سينشر حقاً ؟)

(حدثتنى الدكتورة ليلى كثيراً أنها تخشى أن يصدر الكتاب بعد عدة أشهر ، أو لا يصدر على الإطلاق إشارة إلى الضجة التى يواجهها إثارة الاحتفال بالحملة من جهة حكوميين رسميين ووزير يشاع أنه يستخدم ويسترضى ويعرض له لوحات كثيرة فى معرض باللوفر لإرضائه) .

لنتمهل عند بعض الصور من وهم التاريخ فى القرن الثامن عشر قبل أن نصل إلى توابعه اليوم.

***

منذ البداية ، نعيد طرح السؤال القديم : هل صحيح ما يقولونه الفرنسيون من أن تلك الحملة الاستعمارية حولت مصر من حال إلى حال ؟

وأن مشروعها حضارياً ، ساهمت فيه القوات التى آمنت بمبادئ ١٧٨٩ ؟

..... إلخ

وأكثر ما يواجهنا من حيرة فى الإجابات عبر هذا الكتاب أن صاحبته انتقلت من تأكيد الأسطورة بشكل نظرى إلى مقتضيات

البرهنة عليها بشكل عملى فراحت تعرض لأحداث القرن الثامن عشر ، وتؤكد أن مبادئ الثورة الفرنسية لم تكن هى - كما هو شائع - المبادئ التى حاول نابليون تأكيدها عبر رحلته .

كما يختلط الموقف الغربى فى التعامل مع الشرق بين التعالى والكراهية والعنصرية ، بالقدر الذى يختلط فيه الدين بالفن بالتجارة .

إن مفردات الثورة الفرنسية لم تكن هى التى دفعت بالحملة للخروج من فرنسا إلى إيطاليا ثم إلى مصر ، فالوجه المنير للمبادئ الفرنسية كان له وجه آخر فى التعامل مع الشرق ، ففى الوقت الذى كان هذا الفكر يدعو للتسامح ، تمثلت إحدى نتائجه السلبية فى أنه أدى إلى ظهور لون جديد من الصلف الغربى .

وبعد أن كان الدين ، أى المذهب الكاثوليكى للمسيحية ، يرى حتى عهد قريب منهم ، أن من حقه بل من واجبه ، قتل الآخرين وحرقهم ، مثلما كان يفعل مع البروتستانت واليهود والمسلمين ، أصبح العقل وتمجيده سبب زهو الشخصية الفرنسية الجديدة ، وسبب ازدرائها لكل من يختلف فى الرأى معها .

كما كان الفلاسفة يتهمون أعداءهم بالتسلط والتطرف ، ثم يحاربونهم بكل الأسلحة المتاحة ، وهم ينشدون روح السماحة وحرية الرأى .

ورغم أن فرنسا فى القرن الثامن عشر كانت تدين بأفكار التنوير وتعرف مونتسكيو وفولتير ثم روسو وديدرو وفلاسفة الثورات الأخرى : الإنجليزية والفرنسية . . فإن الفرنسيين كانوا يتكلمون وكأن فرنسا - منذ جمهورية روما الفاضلة المثالية - هى الوحيدة صاحبة الفضل على العالم ، مثل روما التى شكلت أوربا لقرون حتى العصر الحديث ، ويلاحظ الفرنسيون أن ذلك الشعور العام ، بأنهم يقومون بعمل فريد عالمى الصدى ، لخير الإنسانية جمعاء ، صاحب الثورة منذ بدايتها ، فى أول أشهرها

١٧٨٩ ، وهكذا أفرزت الثورة بنفسها ، منذ البداية ، أسطورتها .

وأسطورة الثورة تتخذ أشكالاً أخرى كثيرة منها قضية (حقوق الإنسان) .

أليست هى قضية قديمة جديدة تستخدم فى عصر نابليون ، كما تستخدم فى عصر بوش ، تستخدم فى عصر الإمبريالية الفرنسية كما تستخدم فى عصر العولمة وعصر الاستهلاك والسيولة .. كما سنرى ؟

إنها نفس الحقوق التى تستخدم الآن للحصول على أى مكاسب رأسمالية .

(ما أشبه الليلة بالبارحة حقاً) .

وكان أسلوب الثورة فى تعاملها مع الأحداث هو النذير الذى سنرى خلاله كيف تعاملت فرنسا فيما بعد مع مصر أثناء الحملة .

فيذكر التاريخ أنه إبان اشتداد أزمة بين الحكومة وإحدى المدن الفرنسية (فانديه) ، صوَت المجلس الحاكم لقرار كانت نتيجته قتل حوالى مائة وخمسين ألفاً من السكان ، ناهيك عما كان موجوداً ، حتى انتهت المنطقة اقتصادياً لعقود عديدة ، بل وصل الإرهاب بحكومة الثورة ، كما تؤكد المصادر الفرنسية - إلى إعدام أربعين ألفاً فى باريس وحدها ، منهم ثلاثة وعشرون ألفاً أُعدموا دون محاكمة ، وثمة مثل آخر يؤكد هذا ، ففى حين كانت جزر الهند الغربية الفرنسية ، وأهمها تاهيتى تُعامل على أنها جزء من فرنسا ، ورغم إعلان حقوق الإنسان ، وأول بنوده وهو مبدأ الحرية ، لم يطبق على عبيد مزارع القصب هناك ، فكانت النتيجة ثورة الأهالى ومذابح لا حصر لها .

وهو ما يذكَرنا الآن كيف تُستخدم (حقوق الإنسان) كذريعة لخداع الشعوب ؟

وما حدث فى هذين المثلين حدث لكثير من المناطق الأوربية نفسها

حين استولت عليها فرنسا كبلجيكا وهولندا وسويسرا وإيطاليا والنمسا ثم مصر .

إن السياسة الفرنسية فى أى بلد كانت تحل به كانت تهتم بتطبيق عملية (عصر الليمونة) ، وحين كانت تجد ثوارا فى البلد الذى تذهب إليه كانت تهتم أساساً «باستعمال الثوار وليس خدمتهم» .

يحدث هذا كله حين كانت الثورة الفرنسية قد أعلنت عن (حقوق الإنسان) وحرمان الإنسان ، فى الوقت نفسه ، من حقوقه ، أو حتى اختياره لمعتقداته . تقول د . ليلى عنان : إننا إذا رجعنا إلى مبادئ الثورة و«حقوق الإنسان والمواطن» ، هالنا التناقض الصارخ بين المبدأ وتطبيقه ، ولكنه الواقع ، التاريخ ، والنذير لما حدث فى مصر بالفعل فيما بعد قبل أن تذهب الحملة إلى مصر ، يتقدم الوزير «تاليران» بمشروع غزو مصر لحكومة الإدارة ، فيقول :

«كانت مصر مقاطعة فى الجمهورية الرومانية ، فيجب أن تصبح للجمهورية الفرنسية» .

كان كل سياسى فرنسى الآن يذكر جيداً أن فرنسا هى روما الجديدة وبدون إسهاب فيما كان مفكرو عصر التنوير فى فرنسا محل الاستعمار الدينى ، ومن هنا ، يجب أن نتنبه إلى ما قاله نابليون لجنوده وهو متجه إلى مصر ، يقول : «أيها الجند ، أنتم فى طريقكم إلى فتح سيكون له أعظم النتائج على الحضارة» يتوقف البعض عند كلمة حضارة بينما يندهش البعض أكثر لوجود كلمة حضارة فى هذا السياق . وهنا نلاحظ أن أسطورة الثورة تتخذ شكلاً آخر : الحضارة .

***

كانت حكومة الإدارة الفرنسية فى القرن الثامن عشر الذى سينتهى باحتلال مصر تستخدم كل الألفاظ - بما فيها الحضارة - لتهيمن على

العالم، خاصة، وأن ممثلها فيما بعد - نابليون - كان مولعاً بهذا المسلك .

فمصر ، رغم أنها تنتمى فى ذلك الوقت إلى الإمبراطورية العثمانية.. فإنها كانت تنتمى أكثر إلى حضارة تضرب بجذورها فى أعماق التاريخ ، ومن هنا ، فإن استخدام الحضارة كان لا يتعارض مع المشروع الاستعمارى الذى جاءت به الحملة ، فالأهرامات - كما يلاحظ - كانت المدارس الخفية لتعليم غيبيات تساعد الكهنة على التوصل إلى أسرار الطبيعة وما وراءها . بيد أن هذه الرؤية شجعت بالقطع على اتخاذ قرار غزو مصر ، أو هكذا يقال ، إذ كانت الرغبة جامحة ، بين مثقفى حكومة الإدارة إلى اكتشاف هذا البلد الغامض ، مع ضرب المصالح الإنجليزية ، وتكوين مستعمرات جديدة .

وكانت فكرة العودة إلى أرض العلوم والفنون مستحبة ، وكأن فرنسا بعلمها الجديد وحكمتها العالمية ، تغلق هكذا طرق دائرة المعارف بالرجوع إلى المنبع ، فيحدث الالتحام الذى يضم تاريخ العلوم فتسيطر عليه .

كانت الحضارة لفظة تسرى فى حديث من يتحدث عن مصر التى كانت جزءاً من هذا العالم المصرى القديم فضلاً عن تصور الشرق (سمى القرن ١٨ بقرن شهر زاد) (*)، غير أن الحلم الفرنسى بتأكيد سيطرته (الرومانية) على العالم وأهم أقطاره المتحضرة (مصر) كان أكثر ما دفع فرنسا إلى هذه الحملة ، وحين عاد نابليون بعد عام أو أكثر من حملته من مصر إلى فرنسا ، قال أحد المؤرخين المعاصرين أنه ترك مصر لأنه لم يحقق فيها حلمه الشرقى حيث الحضارة التى كانت فى مخيلة حكومة الإدارة وقائدها المغوار .

(*) انظر : د . مصطفى عبد الغنى ، شهر زاد فى الفكر العربى الحديث ، دار شرقيات ، ج ١ سنة ١٩٥٥

الحضارة هى التى لم تخرج عن الهيمنة على كل شىء بما فيها الحضارة نفسها ، ويذكرنا الكتاب انه بعد عودته من مصر قال البعض :

«إن نابليون يسير ضد تيار الحضارة الأوربية ، وقال بونابرت نفسه عند عودته إلى فرنسا من مصر : «إنه كان سعيداً فى ذلك البلد البعيد ، حيث استطاع أن يتحرر هناك من كل قيود الحضارة الأوربية»

إنه يريد أن يذهب إلى بلاد الحضارة وفى الوقت نفسه لا يريد هذه الحضارة التى تقيده كما يدعى إليه فى الغرب .

تُورد د . ليلى عنان قول أحد الضباط الذى رأى الفظائع التى ارتكبها الفرنسيون فى روسيا ، قال الضابط الفرنسى متسائلاً :

«أهذه هى الحضارة التى أتينا بها إلى روسيا ! ماذا تكون نتيجة هذه البربرية عندما يشاهدنا العدو ونحن نمارسها؟»

ثم تضيف بعد ذلك عبارة دالة ، تقول :

«وكلام مماثل سبق أن قيل فى مصر»

إنه نسيج واحد تتداخل فيه الحضارة بالبربرية بالأسطورة .

وهنا تصل تجربة الثورة إلى شكل جديد يتمثل فى العنصرية .

***

لقد تم خلق الأسطورة فى القرن الثامن عشر ، وأصبحت الحضارة والتنوير والتقدم من القيم التى تُردد ، فيراد لها أن تُصدق أو تُقال حين تصبح القضية قضية اختراق ظلام البربرية التى التقى معها نابليون القائد القادم من باريس (الرومانية) والتى تريد أن تغرس سيف السلام الفرنسى فى إمبراطوريتها الجديدة .

إن فى الحملة عناصر شتى أهمها ميراث فلسفة التنوير .

فى المعرفة حيث تمتزج الرؤية التى تخص فلاسفة التنوير ، بصلف المتحضر الذى يرى نفسه على قمة الإنسانية ، فيرى أن من حقه ، بل

من واجبه ، إذن ، السيطرة على البشرية كلها ، فالبشرية لم تصل مثله إلى هذه الدرجة من النضج والحكمة .

لقد جاءت تجربة الثورة لتجعل معاصريها يظنون أن فى استطاعتهم فرض قوانينهم على الجميع ، على غرار ما فعلته روما قديمًا .

وجاءت - نتيجة هذا التقمص المسيطر على أذهانهم - المغالاة فى التعبير والتعظيم المفرط الذى جعلهم يرون رجالاتهم على أنهم «آلهة» إنها عنصرية الغرب .

وعنصرية الغرب تحتاج إلى موضع آخر .. ◆

لاحظنا - من قبل - أن العنصرية هى عنصر أصيل فى الجانب الفرنسى - وقد تمثلت بوجه خاص فى القرن الثامن عشر فى الحملة الفرنسية على الشرق التى اتسم موقفها من السكان الأصليين بهذه العنصرية الفاضحة التى اتخذت شكل **(المهمة الحضارية)** التى يجب أن يضطلع بها الرجل الغربى على أهل البلاد الأقل تحضراً (وهو ما عرفناه عند الإنجليز **«بعبء الرجل الأبيض»** وعند الأمريكيين فى نهاية القرن «**بالعولمة**» وإن تغيرت الملامح العامة حسب التوجه الجديد) .

وكان أكثر ما يلفت النظر فى هذه العنصرية ارتباطها الوثيق بالاستعمار (سواء جاء فى الحقبة الأوربية وعُرف بالرأسمالى أو جاء فى الحقبة الأمريكية وعرف بالإمبريالى) مما سيفرزه الغرب فى تطوره المعادى لنا ، وقد ذكر لنا التاريخ أن المفكر النازى ألفريد روزنبرج قال أثناء محاكمته فى نورمبرج ، بوضوح شديد : إن العنصرية ليست غير جزء أصيل من الحضارة الغربية الحديثة ، ولم يكتف بهذا ، بل راح يضيف ، وهو يشخص إلى قضاته : إن هناك علاقة عضوية بين العنصرية والاستعمار .

هذه شهادة شاهد من أهلها تكررت كثيراً .

وهى شهادة نعثر عليها فى كثير من مصادر القرن الثامن عشر والتاسع عشر لدى أدباء فرنسا ومؤرخيها منذ الحملة الفرنسية حتى اليوم (وهو ما نجد أحسن تمثيل له فى كتاب د . ليلى عنان ، الجزء الوحيد الذى صدر عن الحملة الفرنسية إلى ما بعد منتصف عام

١٩٩٨) كما تقدمه لنا - فى وضوح صحف الحملة نفسها التى نُشرت خاصة فى مصر وفى مقدمتها « كوريه دى ليجيبت » ، كما ترصده لنا هذه المادة الغزيرة من الدوريات والنشرات والكتب التى صدرت منذ هذا الوقت حتى اليوم فى جميع أنحاء الغرب العنصرى . .

ولكن : ما هى العنصرية ؟

تقدم لنا المعاجم ودوائر المعارف تعريفات كثيرة للعنصرية وخاصة دائرة المعارف الفرنسية ثم دائرة المعارف البريطانية التى فزعت حين طالعت مادة العنصرية فى كل منهما ، أيضاً مخطوطة موسوعة د . عبد الوهاب المسيرى التى لم تنشر بعد وغير ذلك . وعبوراً فوق مصادر عديدة فإن التعريفات تتعدد وتتحدد عند الانتماء العرقى ، وبأن العناصر العرقية تتفاوت نوعياً لا من حيث الشكل وحسب وإنما من حيث القدرة الفكرية والاجتماعية والأخلاقية ، ومن هنا ، هناك عناصر بشرية متفوقة وأخرى وضيعة ، وهو ما يصل بنا إلى أن هناك تحيزاً وتفرقة حسب الانتماء العنصرى .

وهذه العنصرية لها مراتب كثيرة ، فهى تبدو فى حين بالنسبة للأقليات المتميزة ، وتبدو فى حين آخر للتفرقة بين العبد والسيد تبعاً للجذور التى تحدد - فى كثير من العلاقات ، وما يهمنا منها هنا هذه العلاقة القائمة بين الاستعمار وبين أهل الشعوب سواء أكانت مُستعمرة عسكرياً أو مُخترقة سياسياً واقتصادياً وثقافياً .

وترى بعض المصادر (انظر دائرة المعارف الدولية للعلوم الاجتماعية) أنه يمكن القول بأن عهد العلاقات بيت الأجناس بدأ مع التوسع الذى حققته القوى الأوربية الكبرى فيما وراء البحار ابتداءً من القرن الخامس عشر فصاعداً لكن هذا الاحتكاك الأول بين الأجناس لم يتم فى إطار التفوق التكنولوجى الأوربى ، وبعد ضرب أمثلة كثيرة

لهذا يتضح لنا أن الإحساس بهذه العنصرية بدأ أكثر ظهوراً فى منتصف القرن الثامن عشر فى الغرب ، حيث حققت الدول الأوربية قدراً كبيراً من التقدم التكنولوجى خاصة واندفعت بجيوشها إلى أرجاء العالم وكسبت معظم المعارك العسكرية ، وهنا بدأ الأوربيون يدركون سر تفوقهم (المادى) وبينما كانت أحاسيس التفوق فى الماضى تستند إلى الادعاءات الدينية والفكرية التى يطلقها الإنسان على نفسه (وهى ادعاءات فكرية ذاتية واهية) ، بدأت أوربا بعد الثورة الصناعية ترى أن تفوقها يستند إلى حقائق مادية مثل الآلات والمدافع .

وفى الوقت الذى كانت فيه الحملة الفرنسية على مصر تصل إلى الإسكندرية فى صيف ١٧٩٨ كان الإحساس بالتفوق العلمى يستند إلى ادعاءات دينية وفكرية أطلقها الغرب على نفسه .

وهنا ، نستطيع أن نتوقف عند هذه المرحلة ، الممارسة العنصرية الغربية ضدنا أثناء سنوات الحملة الفرنسية فى نهاية القرن الثامن عشر ، وتتحدد فى ادعاءات حضارية ودينية كثيرة نعثر عليها فى الممارسة الفعلية للغرب الفرنسى إزاء الشرق .

***

إن مراجعة تاريخ الثورة الفرنسية نفسها ، لا يمنعنا من التوقف عند هذه الملاحظة الفعلية ، بأن العنصرية تظهر - منذ البداية - بين أبناء الشعوب الأوربية نفسها ، قبل أن تفرق هذه الشعوب بين رقيها الحضارى وعبثها الجنسى وإن بدا أن العنصرية تأخذ شكل ادعاءات مادية

إن الثورة فى طريقها لتحرير الشعوب الأوربية لم تهتم كثيراً بأن تتعامل بشعارات الثورة مع الشعوب التى تحررها ، وقد لاحظ العديد من أبناء هذه الشعوب ذلك وتحدث عنه ، وفى كتاب د . ليلى عنان

الأخير تلاحظ أنه لم يكد يمضى عام على قيام الثورة حتى تغير شعارها تماماً ، فقد أصبح شعارها بعد عام ١٧٩٤ «الحرية والمساواة» فقط . بعد إسقاط كلمة «الإخاء» كما نرى ذلك جلياً على أوراقها الرسمية ! وكان لحكام الثورة فى هذا الشأن منطق قوى لا يجادل ، يقول : أيصح أن تحرر فرنسا هذه الشعوب على نفقتها الخاصة ؟

لم يصدق أحد أن المقاطعات (الدول) التى كانت تجتاحها جيوش الثورة قد تحولت إلى (أخوات) كما يردد ، فإن هذا الشعار (الإخاء) انتفى تماماً من التعامل مع ثوار بلجيكا أو معاقبة ألمانيا . . إلخ .

والواقع أن ذلك لم يكن مرجعه الحاجة للمال فقط ، وإنما هو الإحساس بقيمة الحضارة الفرنسية ، ولنقل إنه استخدام أية ادعاءات مادية من أجل تأكيد الحس العنصرى الذاتى الضيق لدى الفرنسيين .

والذى يراجع المصادر العربية أو الفرنسية يلاحظ أن فرض عقوبات مادية ثقيلة أو الإقامة بالنهب المادى المنظم للشعب المصرى لا يحمل وراءه الحاجة المادية وحسب ، فقد كانت الجيوش الفرنسية فى مصر تحتاج - بالفعل - للمؤونة ، وإنما كانت طريقة فرضها ، وطريقة تحصيلها تتسم بعنف ناشئ عن عنصرية بغيضة لا تعود إلى ضرورة التحصيل وحده ، بقدر فرض سيطرة الرجل الغربى الآتى من الشمال على أبناء الشعب الأقل حضارة منه ، وكثيراً ما لاحظنا أن إساءة الفرنسيين لعلماء الدين أو النساء لا تخلو من هذه العنصرية التى كانت تظهر فى كثير من الأحيان. إنها المهمة الحضارية التى جاءت الحملة من أجلها .

***

وكما اتخذت العنصرية ادعاءات مادية ، كذلك اتخذت ادعاءات

دينية وأيديولوجية . وهى إدعاءات وإن امتزجت بزعم التنوير وتأكيد الأسطورة - كما لاحظنا - فإنها لم تخل من الكشف عن هذه العنصرية بوضوح شديد .

ومراجعة اللوحات التى كانت تُرسم لنابليون فى مصر أو بعد رحيله بسنوات ، كانت لا تخلو من هذه العنصرية التى تمتزج بالبطولة الفردية وتأكيدها ، فمن يعرف تفاصيل اللوحات التى نجدها على جدران المعابد وداخل قبور الفراعنة وتسجيل انتصاراتهم يلحظ شبهاً كثيراً بينها وبين اللوحات التى أمر نابليون أن ترسم له إبان وجوده فى الشرق (رسمت فيما بعد فى أوربا) .

كثيراً ما نجد الفرعون المصرى - أياً كان اسمه - ، وهو يقف وسط اللوحة أو فى الجانب الأبرز منها بينما الآخرون وفى الغالب يكونون من الأسرى يتوسلون إليه أن يعفو عنهم ، بينما لا يغادر يده سلاحه وهو يتعامل مع أعدائه بقسوة ، وهو ما نجده فى كثير من اللوحات التى يقف فيها نابليون على قدميه أو على حصانة ، بينما عدد من الأسرى ، لا يمنع أن يكون بينهم بعض علماء الدين ينظرون إليه فى خوف أو خشوع .

وفى الكورييه - صحيفة نابليون فى مصر - كثيراً ما نقرأ (قرار من القائد العام) تشير إلى مثل هذه المشاهد ، وهى تمنح أو تمنع بعنف مما يوحى بنبرة العنصرية العالية ، وعلى سبيل المثال ففى صفحة هذه الجريدة وتحت رقم ٦ (السنة السادسة للجمهورية) يقرأ كثيراً من أوامر نابليون برفع العلم الفرنسى مثلث الألوان على الأبنية وعلى صدور العلماء بقوله أنه حين أحس القائد العام - نابليون - بارتياب أهل القاهرة فى تنفيذ هذا القرار فإنه - ولاحظ اللهجة ، وخاصة أن نابليون كان يشرف على كل كبيرة وصغيرة فى الصحيفة - (جمع حوله

أعضاء الديوان وبعض الرجال من ذوى النفوذ لدى جماهير الشعب . وبعد أن استمع إلى اعتراضاتهم فندها بمهارة بل واستمالهم إلى دعوته إذ وصل به المقام إلى الخوض معهم في مناقشات دينية بهرت عقول الأتراك وأقنعتها) ثم يضيف (وبعد محاضرتين طويلتين ارتدى أعضاء الديوان بأنفسهم الشال المثلث الألوان في حضرته وأكدوا له أن جميع سكان مصر سوف يرتدونه عما قريب) .

في حين أن الجبرتي - وهو معروف بميله إلى الفرنسيين أكد في أحداث نفس اليوم أول ربيع الأول أن نابليون حين حاول أن يضع هذا الشال على كتف الشيخ الشرقاوى «رمى به في الأرض، واستعفى وتغير مزاجه ، وامتقع لونه ، واحتد طبعه . . » أكثر من عالم استاء من هذا الشال أو العلم إلى درجة أن الشيخ السادات قام - في حضرة القائد العام - بنزعه وإلقائه أرضاً .

ونستطيع أن نصل إلى العدد (١١) من السنة السابعة للجمهورية من نفس الصحيفة لنقرأ بالحرف الواحد عن نابليون (نحن نعطى للعالم أول مثل للفاتح المشرع، وعندما حضرنا كان الفاتحون يتبنون قوانين المهزومين، فلننتصر عليهم بعقولنا - لاحظ أنه يتحدث عن العقل الفرنسي - وهو نصر أصعب منالاً من نصر السلاح فلنتمثل بنابليون ولنكن متفوقين على الشعوب الأخرى كما هو متفوق على جنكيز خان) .

إن هذا يشير أولاً إلى تفوق العقل الفرنسي ، ثم هو يشير إلى تفوقه الذى يتقرب به من الفرعون مرة ، ومن أى حاكم متميز حضارياً في المنطقة ، وليس مصادفة أن نجده يذكر كثيراً في ذكريات بسنت هيلانة اسم الإسكندر أكثر من مرة في معرض التفوق الحضارى عن غيره ، وهو هنا يصل في التفوق إلى مداه ، حتى ولو كان التفوق يصل إلى التساوى

بحاكم طاغية مثل جنكيز خان ، إذ أن التفوق هنا يشير إلى أنه يزيد عليه في القوة والتحضر أيضاً بيد أن التفوق العنصرى يجاوز التفوق الحضارى إلى التفوق الدينى وهنا نصل إلى الادعاءات العنصرية الدينية.

***

إن نابليون كان يرى في الدين وسيلة لا غاية .

لم يكن يعطى للدين أهمية أية أهمية إلا بالقدر الذى يحقق له طموحه العنصرى .

في ذكريات سنت هيلانة فقرة ، يقول فيها حين يتذكر وجوده في مصر ، وقد تحدث البعض عن أحد القادة الصليبيين في الشرق : (إن لويس التاسع عشر أنفق ثمانية أشهر في الصلاة ، وكان أجدى أن ينفقها في الزحف والقتال واحتلال البلاد) .

وعلى ما في ذلك من زهو صليبى - بغض النظر عن تدين بونابرت - فقد كان يخفى زهواً عنصرياً لا يمكن إغفاله .

لقد كان يستخدم الدين - بغير تردد - لتأكيد أسطورته التى لم تكن لتخلو من عنصرية بأية حال .

وتصل العنصرية إلى أقصاها حين يختلط استغلال الدين باختراع الأسطورة فحتى بعد رحيل بونابرت ، يجيء العديد من الكتاب المؤرخين ليتحدثوا عن الحرب النابليونية في الشرق ، فيرى أحدهم (عام ١٩٣٢) أنها تكاد تكون حرباً صليبية جديدة ، إذ أنه يقول عن أحد انتصارات الجيش الفرنسى في الشام «ستة آلاف فرنسى هزموا سبعة وعشرين ألف تركى ! وفى هذا المكان نفسه ، في الخامس من يوليو سنة ١١٨٧ ، هزم المسلمون جى دى لوزينان ! يا له من ثائر» ، وفى أحد ثورات المصريين على الفرنسيين يذكر نفس الكاتب أن

نابليون كان فى عكا ، لماذا ؟ يسأل ويجيب بلهجة عنصرية عالية : «يثأر لهزيمة الصليبيين فى القرن الثانى عشر» .

إن لوحة تسمى (مرض الطاعون فى يافا) للفنان جروتشى على سبيل المثال بهذا المعنى ، وتلاحظ د . ليلى عنان أن من يرى بونابرت واقفاً وسط اللوحة (وهو دائماً وسط كل اللوحات) . والضوء مسلط عليه ، وهو يلمس بيده يد أحد مرضى الطاعون الملقى على الأرض ، لا يسعه إلا ان يتذكر السيد المسيح (عليه السلام) عندما لمس يد الأبرص فخلصه من مرضه ، والفارق الوحيد - كما تؤكد - أن مرضى الطاعون من الجنود الفرنسيين لم يشفوا من مرضهم ، كما نعرف أنه بعد ذلك بعدة سنوات حين أعيد رفات نابليون إلى باريس عام ١٨٤٠ بدا وهو يخرج منتصراً من القبر ، وكأنه بالفعل السيد المسيح كما تصوره كثير من اللوحات الدينية على مر القرون .

والذى يتمهل عند ذكريات (سنت هيلانة) يجده يغلو فى حلمه العنصرى الذى لم يتحقق . نقرأ فى أحد العبارات وهو يوضح رؤيته للعالم «أوربا تغزو أفريقيا من الجنوب ، والجنس الآرى سيغمرها فى المستقبل كما غمر أمريكا . . الجنس الآرى سيغمر الكرة الأرضية ويحكمها ، ونعم . . الحضارة ستكفر عن جرائم الغزو أو دنس الهدف» .

وهنا تسأل د . ليلى عنان «ألا يذكرنا هذا الجنس الأوربى ومشروعه بالفلسفة النازية» ؟

وهو سؤال على بداهته يؤكد **عمق العلاقة بين العنصرية والنازية .**

الملاحظة التى تلفت النظر فى هذا كله أن مائتى عام على مجىء الحملة وذهابها ، لم تخل من هذه العنصرية ممثلة فى كتاب نابليون أو مؤرخيه ، منهم أسماء مازلنا نتعامل معها كعلامات مضيئة ، فنحن لا نعدم هذه العنصرية العنيفة عند شاتوبريان بالقدر الذى نجدها عند

هيجو وبلزاك وستندال ولامرتين ، كما نجدها عند المؤرخين من أمثال – والاستشهاد أيضاً من كتاب د . ليلى عنان – ميز وليجران وباستر وميشان وبورجوا وسبيلنان وترانييه ركار مينياني .. وغيرهم .

وهو ما يشير إلى أن العنصرية لم تكن رهناً بمجيء نابليون وخلفائه إلى مصر نهاية القرن الثامن عشر وإنما قبل ذلك وبعده أيضاً .

وهذه حقيقة أصبحت في حكم البدهيات الآن بحيث لا نحتاج لمن يؤكدها

بقي بدهية أخرى لا تحتاج لتأكيد ، إنه إذا كانت العنصرية القديمة تعبر عن هذه الإمبريالية الاستعمارية ، فإن العنصرية الجديدة تعبر عن النظام العالمي الجديد الذي يتخفى وراء العولمة وتأخذ آلياته شكل السيولة الشاملة وفي الوقت نفسه الاختراق الثقافي وعنفه المعرفي الجديد .

ان الإمبريالية الغربية قديماً والعولمة الآن هما وجهان لعملة واحدة هي العنصرية ◆

المنصة .. والكلمات المتقاطعة .. !!

اقترب الشاب من المنصة ، في خجل ، كاد يتعثر ، حين بدأ الحديث عن حضارة الفرنسيين المزيفة والأثر السلبي الذى تركته الحملة ؛ ذاب خجله ، وراح ينتفض غاضباً رافضاً .

كان أكثر ما لفت نظرى أنه راح ينظر - من آن لآخر - إلى المنصة شزراً . في وقت ارتفعت فيه موجة من التصفيق الحاد ، أدركت أن المدرج الذى يحتوى على أكثر من ألفى طالب وطالبة من كليات الجامعة - أدركت أنهم يشاطرونه الرأى ، وأن بعض (الأساتذة) الذين جاءوا من مصر لم يوفقوا في هذا الوقت ، ولم يختاروا له المكان .

شكرنى الطالب على السماح له بالتعبير .. عاد إلى المدرج ، حين عدت من كفر الشيخ ، كانت في انتظارى نفس المفاجأة .

لفت نظرى غضب د . ليلى عنان وهى تتحدث عن الزميلة (الأستاذة) التى تصر على وجود هذا الأثر الفرنسى ، أكدت لها - أضافت د . ليلى - أن الحملة ، استعمارية ، في المقام الأول ، عادت تلح أن لها آثاراً إيجابية ، ولابد .. إلخ .

تخيلت الحركات الغضبى للدكتورة عنان وهى تنظر للأستاذة شزراً .

رحت أحدث نفسى عن البدهيات ، وقضايانا المكررة التى نثيرها من آن لآخر (هى هى) وعن الكلمات المتقاطعة التى لا تحتاج لجهد كبير .

***

أسرعت أقول لنفسى أن تلك ليست حالات فردية ، إنها حالات عدد كبير من (الأساتذة) الذين جاءوا من مصر إلى كفر الشيخ ، أو

عدد كبير من الذين يفتون بغير علم - فى الغالب - فى مجالس القاهرة ومنتدياتها العلمية فلا يكفون عن الحديث عن التأثير الإيجابى للحملة وبإصرار شديد وهى حالة يُعرف صاحبها عند علماء النفس بصاحب الرأى الواحد فى حين لم يقرأ أى منهم سطراً واحداً من تاريخ الحملة، أدركت أكثر وأكثر أنها حالة من تزييف الوعى التى تتم بين ظهرانينا ، ولكن :

لماذا هى (تزييف الوعى) ؟

لنقل - جدلاً - إنها حالة تغييب الوعى أو غيابه .

وهذه الحالة لم أجدها فى كفر الشيخ أو القاهرة أو الإسكندرية أو أى إقليم من أقاليمنا المصرية فقط ، وإنما هى - إذا جاوزنا الجغرافيا - موجودة فى التاريخ أيضاً .

ليست الجغرافيا فقط ، وإنما التاريخ .

واخترت أن أتوقف عند التاريخ وعند مثال دال أرى فيه كيف تتم حالة تغييب الوعى لأجيال كاملة ولقرن من الزمان .

يبدو أننا لابد أن نعود إلى المنصة .

***

فى بحث أحد أساتذة ندوة : (تطور التفكير العربى) التى أقيمت بكفر الشيخ حول (صناعة الأيديولوجيا ..) توقف فيها عند الحملة الفرنسية ، عبر الكتاب المدرسى ، قدم د . كمال مغيث ، مسحاً للكتاب الذى يدرس فى المرحلة المتوسطة - الثانوية - منذ عام ١٩٠٩ حتى هذا العام ١٩٩٨ راح يرصد فيه كيف قدم الأساتذة ، أساتذة التاريخ فى الغالب ، الحملة الفرنسية للطلاب المصريين منذ بداية القرن العشرين حتى نهايته .

فى عام ١٩٠٩ قدمت وزارة التعليم كتاب (خلاصة تاريخ مصر

الحديث) أشارت فيه إلى دخول الجيش الفرنسي إلى مصر ، وسعى نابليون في مصر إلى إقامة الديوان ليكون هدفه فض الخصومات .

وبعد إشارة عابرة للشام أشار إلى دخول شخص حلبي على كليبر فقتله (هكذا دون ذكر اسم سليمان الحلبي أو ذكر الدور البطولي الذي لعبه لاغتيال كليبر الذي كان أكثر قسوة من سواه على المصريين وأكثر دموية ضد الشعب الأعزل ..) .

لم نجد إشارة أو تمهيداً للحملة في هذه الفترة الخصبة التي تتحدث عنها الوثائق في مصر ، وإنما تقليل من دور الشعب المصري إزاء الحملة الحضارية التي جاءت لترسم لنا أشكال ديموقراطية لم نكن لنعرفها لولا مبادرة بونابرته - هكذا أسموه - .

باختصار كان الحديث عن الحملة أكثر من تصدى الشعب لها .

ورغم أن الجبرتي كان قد رحل منذ قرابة قرن من الزمان (عام ١٩٠٦) فإن شبحه مازال قائماً وراء محمد أفندي دياب المؤلف .

فالفرنسيون - رغم أنه ذكر بعض مساوئهم ، لم تخل أفعالهم لديه من تأثير حضاري ملموس ، استمر في عديد من الظواهر ، وفي مقدمتها هذا الديوان . وهو ما يذكرنا أيضاً بالجبرتي - سامحه الله - الذي وصف الحلبي بأنه (من شذاذ الآفاق) .

إنه الأثر الفرنسي المجيد الذي يتحدث عنه كتاب يقدم لطلاب المرحلة التوجيهية (الثانوية) حيث كان التأثير الفرنسي في الحياة العامة مازال مستمراً رغم أن البلاد كانت تشهد الاحتلال الإنجليزي .

وإذا كنا لا نعرف الكثير عن هذا المؤلف فإن الكتاب الذي قرر بدلاً منه عام ١٩١٦ كان لمؤرخ معروف هو سليم حسن الذي راح ، في كتابه الجديد ، يضرب على وتر التأثير الظاهر ... إنه يذكر ثورة فرنسا لينتقل بسرعة إلى الحملة الفرنسية فيتوقف عند مآثرها : المجلس

العلمى الفرنسى ، فعالية الثقافة الفرنسية فى كافة العلوم وفائدة كتاب (وصف مصر) وروعته ، ويسهب فى الآثار الإيجابية للحملة . ولا تنسى الوزارة أن تضمن الكتاب صورة نابليون وهو يقف أمام الأهرام بينما فى أمامية الصورة ، وتحت قدمى بونابرت لفائف المومياء .. إلخ

وننتقل بين أعوام كثيرة يتغير فيها الدرس فى كل مرة ولا يتغير الانبهار الوزارى (نسبة إلى أساتذة الوزارة) بالحملة وهو ما نجده فى دروس أعوام ٣٣ ، ٥٤ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٩ - ٧٤ حتى نصل إلى عام ١٩٨٩ ..

تتغير العنوانات لكل كتاب حسب المرحلة التى تمر بها البلاد ويظل المضمون واحداً ، تتغير العبارات أو بعض الأحداث ويظل المضمون هو هو .

فى عام ١٩٣٣ - على سبيل المثال - نجد كلاماً عن مصر الحديثة ، ومصر فى هذه الفترة كانت تتهيأ أكثر للاندماج فى الرأسمالية الغربية رغم بزوغ الفكر الإسلامى فى كتابات كتابها ، فى عام ١٩٥٤ يزيد الحديث عن تاريخ مصر المعاصر مع بقاء المضمون .

فى عام ١٩٥٩ نلاحظ تركيزاً على الوجود العربى فى المنطقة حتى يصبح عنوان الكتاب هو (تاريخ العرب الحديث) ..

ندرك أن أحداث الخمسينيات تدفع بالبلاد إلى الوحدة العربية أو تسعى إليها ورغم حدوث الانفصال بين مصر وسوريا ، وصعوبة المخاض القومى ، فإن الدرس - العنوان لا يتغير فى السنوات ٦٢ ، ٦٩ ، ٧٤ خاصة والحديث عن فعل نابليون يمضى فى اتجاه الإفادة من مقومات العروبة ، وتأكيدها وهو ما يلقى فى طاحونة تأثير الحملة فى اتجاه الفكرة العربية التى لم تكن واردة فى وقتها .

ومراجعة هذه الكتب المدرسية التى توجد نسخاً منها فى المتحف التعليمى ، نلاحظ ، أن ثمة تأثيراً مؤكداً موجوداً لكل هذه الكتب على مدى قرن على وجه التقريب لم أقتنع كثيراً بكلام الباحث ، وهو كلام

مرسل فوق المنصة . مدون ببعض الكروت البحثية ، حين سألته عن هذا التأثير ، كتب إلى يقول :

«إن هناك تأثيراً فرنسياً للحملة على مصر .. مع الاختلاف فى الموقف من هذا التأثير .. غير أن صناعة الأيديولوجية تغير الأحداث ولا توقف الأثر ، فمن الممكن - كما يؤكد - أن تصنع أيديولوجية بدون الوعى الكامل بها أو يتصور أنها الموقف الصحيح .. فمثلاً فى ظل ثورة يوليو تهتم الثورة بأثر الثورة الفرنسية فيما يتعلق بالقضاء على الإقطاع وإعلان الجمهورية فقط دون الإشارة إلى الدستور والتنوير والجمعية الوطنية وحقوق الإنسان مما جاء به نابليون» .

الأثر ظاهر إذن - كما يقول - وإن تغير صنع الأيديولوجية حسب كل عصر .

اكتشفت أن الخلاف بينى وبين الأستاذ جد كبير . حملت أوراقى وغادرت الدلتا إلى القاهرة .

***

فى القاهرة حمل إلىَ البريد رسالة باحث قضى حياته عاملاً فى دور الوثائق قبل أن ينتقل إلى الجامعة ليعمل كأستاذ ، راجعت الرسالة أكثر من مرة ، آثرت ان أنقل أهم فقراتها .

جاء فى رسالة د . زين العابدين شمس الدين نجم أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الدراسات الإنسانية ، بعد الإشارة لحملة بونابرت الأول ، وأنا أنقل هنا من رسالته بالحرف الواحد :

(وفى أوائل عهد إسماعيل عملت فرنسا على إنشاء مستعمرة فرنسية فى منطقة قناة السويس ، وكان الإمبراطور. نابليون الثالث متحمساً لهذا المشروع حيث أراد إنشاء مدينة فرنسية عند مصب القناة على ساحل البحر المتوسط وبدأت فرنسا خطوات جادة لإنشاء

هذه المستعمرة داخل الحدود المصرية على أن تكون غير خاضعة لسلطة الحكومة المصرية أو قوانينها المحلية ويكون أكثر السكان فيها من الأجانب المقيمين فى مصر ، فقد اقتطعت فرنسا مساحة كبيرة من الأراضى تفوق بكثير المساحة المقدرة لشركة قناة السويس مما أثار الشكوك حول النوايا الاستعمارية لفرنسا برغم الإيضاحات التى قدمها ممثلو فرنسا فى محاولة لتبديد هذه الشكوك ، وعندما أحس الخديوى إسماعيل بخطورة الموقف واجه الأمر بحزم ورفض احتفاظ الشركة بمساحة تزيد على ٢٤٠٠ فدان قابلة للزيادة فيما بعد كنواة لهذه المستعمرة التى كانت تلقى تأييداً كبيراً من الحكومة ، تعامل مصر كأنها دولة مهزومة فى حرب وتتصرف فى الأراضى المصرية وفقاً لمخططاتها . وأسرع شريف باشا ناظر الخارجية بالكتابة إلى وكيل الشركة ينتقد تصرف الشركة فى الأراضى التى لا تملكها . بمقتضى حكم الإمبراطور الفرنسى وإزاء رفض مصر الانصياع لهذه المحاولة فقد أقر الإمبراطور فى النهاية بأحقية مصر فى التصرف فى أراضيها ، وهكذا فشلت هذه المحاولة لإقامة مستعمرة فرنسية فى مصر كما سبق أن فشلت الحملة الفرنسية فى السيطرة على مصر) .

لا تنتهى رسالة أستاذ التاريخ . وإنما تفيض بما يذكرنا بقسوة الحملة الأولى على أهالينا فى نهاية القرن الثامن عشر من انتهاك الحرمات والبيوت والأعراض وسلب الأملاك والممتلكات وتدنيس المقدسات رغم ما كان نابليون يردده فى بياناته المخادعة إلى الشعب .

ويغرينا هذا كله بالمقارنة بين نابليون الأول وحفيده ، فنابليون الأول فى الطريق إلى مصر قال - كما جاء فى مذكراته : **« سأذهب لأستعمر مصر»** .

وهاهو الحفيد يسعى للمرة الثانية فى أقل من نصف قرن لإقامة

مستعمرة فرنسية بسفور شديد، وبإدراك لا ينقصه التحايل أو الخداع .

الأول : أراد أن تكون مصر كلها مستعمرة .

والآخر : أراد أن تكون قناة السويس مستعمرة .

ويغرينا هذا كله بالمقارنة بين الفرنسيين فيما مضى والفرانكفونيين والأمريكيين الآن .

***

يغرينا هذا كله لنتذكر الحملة الأمريكية التى تواصل وقاحتها وتعاونها مع الصهاينة ضد أهالينا فى كل البقاع العربية (لم يختف الدور الفرنسى أغلب هذه الفترات منذ حملة ١٨٩٧ مروراً باحتلال الجزائر وتونس مروراً بسوريا وسايكس بيكو وصولاً إلى نكبة ٤٨ وعدوان ٥٦ .. إلخ) ، وضرب الحائط بمائة وخمسين قراراً لصالح العرب من مجلس الأمن ، والعودة ببغداد إلى العصر الحجرى ، وتكريس التطبيع مع الصهاينة منذ نادى بيريز بالسوق الشرق أوسطية، ونتنياهو بالأمن لا السلام ، وكلينتون بحماية الأقلية وحقوق الإنسان .. إلخ .

هل يحتاج هذا كله لكلمات متقاطعة .. ؟

***

قبل أن أنهى هذه السطور تذكرت الدراما التى كانت تعرض (يومياً) فى الشهر الفضيل من عام ١٧٩٨ ضد الفرنسيين و(الأبطال) فى مصر فى مواجهتهم ..

كانت دراما التليفزيون تعرض بعد قرنين كاملين من الزمان على مجىء الحملة الفرنسية إلى مصر .

كانت الحملة قد جاءت فى نهاية القرن الثامن عشر .

وها نحن فى نهاية القرن العشرين .

ترى ماذا حدث فى هذين القرنين من أحداث جسام حتى نرى الحملة فى ضوئها ، تذكرت أننى كنت أردد المقاطع الأولى بشكل لا شعورى له دلالة .. كان المقطع يقول :

فمصر لم تخضع

ونحن لن نخدع

كنت أعيد المقطع فأقول :

فنحن لن نُطبَع

كنت أبدأه دائماً - بشكل لا شعورى دون أن أحس - حتى - بإعادة نطق الكلمة بشكل مغاير هكذا :

فنحن لم نُطبَع

وكنت حين أكتشف ذلك أردد بينى وبين نفسى : لن نُطبَع مع من ؟

كانت قضية التطبيع مع الصهاينة تردد وتفرض نفسها منذ سنوات، ربما منذ عقدت اتفاقية كامب ديفيد فى السبعينيات .

إذن ، هل التطبيع هنا يقصد به عدم التفاهم مع الصهاينة .

كنت أدرك وإن لم أصرح لنفسى بشكل واضح أننى / أننا لن أطبع مع العدو الصهيونى الغربى .

وهل هناك ... كنت أعود إلى الأسئلة صامتاً دائماً .

وهل هناك علاقة بين صهاينة القرن العشرين والغرب كله ؟

بل السؤال الذى يجب أن يقال بدون تفكير :

أو ليست هناك علاقة بين الغرب والصهيونية ؟

إنه الغرب ..

سواء وجد فى شكل الصهيونية التى يحكمها ملوك اليهود أمثال نتنياهو وباراك وغيرهما الآن ، أو الصهيونية التى تتلبس ثوب الغرب ويحكمها أى حاكم غربى فى البيت الأبيض هناك أو البيت الأسود فى

أية عاصمة أوربية . . ، لا فارق .

ثم قد ينصرف ذهنى ، وهو ينصرف بالفعل ، إلى تطبيع من نوع آخر ، التطبيع مع الداخل ، مع هؤلاء الذين يريدون منا أن نطبع مع الغرب ونلعب معهم لعبة المنهزم دائماً . . ومن هنا ، ينتفى البحث أو التفتيش عن القصد من التطبيع .

نعم ، نحن لن نطبَع خارج المنصة أو فوقها .

لن نطبَع مع الخارج .

كما لن نطبَع مع الداخل .

فما زال الخطر نتاج الداخل أكثر منه نتاج الخارج .

ونتاج الغرب البعيد (= الشمال) كما هو نتاج الغرب القريب (= الصهيونية) فى فلسطين العربية .

العدو واحد معروف فى الداخل أو الخارج ◆

من الذى أثر ومن الذى تأثر؟

منذ بدء حديثنا عن أثر الحملة - السلبى - توالت علينا ردود أفعال كثيرة ، تشير - فى أغلبها - إلى الدور السلبى الذى يلعبه الغرب معنا ، أو علينا . ومن ذلك تلك الرسائل التى تشير إلى الكتابات الكثيرة التى تركها الرحالة من شتى الأجناس الفرنسيين منهم أو الألمان أو حتى - الإنجليز . .

ويلاحظ أن سيل هذه الردود زادت عقب ما نشرناه من قبل بعنوان . . (لو لم يأت الغرب) كرد فعل لهذا التيار الرافض لأى حركة أو تطور كانت تشهده البلاد قبل أن يأتى الغازى الفرنسى إلى بلادنا .

وهذا ليس مبالغة - فيما نرى - بقدر ما هو تقرير لتاريخنا الوطنى فمازال هناك تيار - رغم ضآلته - يرى أننا لم نعرف عنصر التنوير قط ، اللهم إلا على يد بونابرت ، ناسيًا أو متناسيًا ، أن بونابرت لم يكن ليريد إلا أن يكون الإسكندر الجديد بفتوحاته للعالم (وذكرياته فى منفاه تزخر بذكر هذا الاسم مقترناً بفتوحاته) وأن بونابرت لم يكن إلا ابن الثورة الفرنسية التى كان هدفها التغلب على إنجلترا العدو اللدود لها لتلعب بدور روما فى العالم القديم ، حتى إذا ما فشلت فى غزوها ، راحت تفكر جدياً فى غزو مصر ليتسنى لها الحصول على أكبر قطعة من كعك المستعمرات .

إن الارتباط كان أكيداً بين المصالح الاقتصادية والتفكير والخطط الاستراتيجية ، بل كان ينظر إلى مسألة التجسس على الخصم ليس

بمنظور أخلاقى وإنما تمثل سعياً للمصلحة وإيثاراً لها .

وعلى هذا النحو ، لم تكن فرنسا بمنجاة منها ، بل إن فرنسا كانت أسبق وأقدم من إنجلترا فى هذا المضمار التى كانت أكثر تطلعاً للاستيلاء على مصر منذ الحروب الصليبية وكانت الأسبق فى الحصول على الامتيازات الأجنبية من الدولة العثمانية ، وفى التاريخ الحديث كان هذا المخطوط من تأليف ليبنيز الذى قدمه إلى لويس الرابع عشر فى نهاية التبشير وإرساليات التعليم وعمليات الاستشراق المستمرة .

وعودة إلى مراجع هذه الفترة ترينا أنه فى الوقت الذى كان يدور فيه الصراع بين الدول الكبرى على مصر ، لم تكن مصر خاملة ، أو تفتقر إلى الازدهار التجارى أو - حتى الحضارى - يؤكد هذا عدد كبير من المؤرخين الجدد فى فرنسا ، وكتب مذكرات الحملة من الضباط والجنود من الفرنسيين ، وأيضاً عدد كبير من الرحالة العرب والأجانب إلى غير ذلك مما يستطيع المرء معه أن يرى صورة نابضة بالحياة فى مصر قبل أن تأتى الحملة .

بل إن كتابات هؤلاء الرحالة الغربيين منهم والشرقيين ترينا أن مصر كانت مزدهرة ، وقد انفردت القرون السابقة - خاصة القرن الثامن عشر - بمرور عدد كبير من الرحالة إلى مصر كان منهم الجواسيس كالبارون دى توت وفولنى وأوليفيه والرحالة غير الفرنسيين الذين جاءوا إلى مصر بهدف فهم ما يحدث فى العالم القديم فى هذه الفترة المزدهرة من التاريخ فى هذا العالم .

وقد لاحظت أن عدداً كبيراً من ردود الأفعال والرسائل التى جاءت كانت تتركز على هؤلاء الرحالة ، وخاصة ، أولئك الذين كتبوا بشكل محايد تماماً .

ولأن الكتابات تفرقت بين الرحالة الغربيين والرحالة الشرقيين ، فسوف نتوقف عند رسالتين لنرى ، إلى أى مدى ، كانت مصر مجتمعاً متطوراً قبل مجىء الحملة .

وسوف تتركز الرسالة الأولى عند رحالة غربى والأخرى عند رحالة عربى .

***

الرسالة الأولى : كتبها إلينا قارئ عاشق للتاريخ الحديث ودارس له - كما جاء فى رسالته - يقول بكر زيدان وهو يحيلنا إلى كارستن نيبور الرحالة الألمانى الشهير وهو رحالة يختلف عن الرحالة الجواسيس الذين جاءوا مصر فى نفس الفترة أو قبلها ، وكان هدفهم الأساسى التجسس وحث بلادهم (فرنسا تحديداً) على الاستيلاء على مصر للحصول على ثرواتها الاقتصادية فى موقعها الجغرافى الهام .

وقبل أن نتوقف عند رحلة نيبور يجب ملاحظة أن اختيار هذا الرحالة الألمانى جاء لنزاهته وبعده عن الأغراض الاستعمارية على العكس من الرحالة الفرنسيين ، فأكثر من مرجع لدينا يشير إلى أن قادة الحملة الفرنسية ذكروا أنه لولا تأكيد سافارى وجرانجيه وفولنى وغيرهم من رحالة الحقبة التى سبقت الحملة الفرنسية لما تمكن من معرفة مصر قبل غزوها ، لقد كتب الرحالة الألمانى بنزاهة ، وهو ما تسجله هذه الرسالة التى أخلى بينها وبين القارئ الكريم الآن ، جاء فيها :

وإن هذا الرحال الألمانى - نيبور - الذى قدم إلى مصر عام ١٨٦١ أى قبل الحملة الفرنسية بما يزيد على ربع قرن من الزمان لم يجد مجتمعاً نائماً بل وجد مجتمعاً منعماً بالحياة والحيوية .. (و) .. فيقول نيبور عن الزراعة فى مصر إن الآلات التى تستخدم فى رى الأرض بعد انحسار الفيضان هى أجدر الآلات المصرية بالملاحظة والإعجاب ،

وللمصريين وسائل مختلفة لرى الأرض ، وأن الحدائق المصرية تمتلئ بكثير من القنوات تمكن الزارع من ريها جزءاً بعد جزء ، وقد نظمت القنوات بين مزروعات الحدائق تنظيماً فنياً جميلاً بحيث يبدو تخطيط الحديقة على هيئة مسالك متشابكة يتنزه بين جنباتها الناس.

كما جاء عن صناعة النوشادر : وربما كان من الممكن صناعة النوشادر فى أوربا بالطريقة الجيدة الرخيصة المعروفة فى مصر ، كما يبدى نيبور انبهاره بمصانع التفريخ بوصفها اختراعاً مصرياً .

وعن الاستيراد والتصدير جاء أن الجلد الخام يعتبر من أهم البضائع التى تصدرها مصر ، وتقدر كمية المصدر منه سنوياً بـ ٧٠ أو ٨٠ ألف قطعة ، تصل إلى مرسيليا منها ١٠,٠٠٠ قطعة من جلود الجاموس الجيدة ، تستورد إيطاليا كمية أكبر بكثير ، أما الزعفران (الذى تقدر قيمته الآن كالذهب تقريباً) ويتراوح مقدار ما يجنونه عادة من هذه الزهرة (الزعفران) يزن ٥ أو ١٨ ألف قنطار يذهب أغلبه أو أفضله إلى مرسيليا وليفورنيو ، وتجارة التيل فى مصر تجارة عظيمة جداً ، ويجرى تصديره من مصر إلى بلاد البربر ومرسيليا وليفورنيو وتركيا وسوريا بجدة بل واليمن ومنه أنواع مختلفة ويصدر أكثر القطن الذى لا تستهلكه البلاد إلى مرسيليا وليفورنيو .

وحين يصل إلى تجارة الترانزيت يؤكد أنه تأتى كل عام فى شهور إبريل ويونيو عدة قوافل من أفريقيا محملة بثلاثة أنواع من الصمغ وبسن الفيل والتمر هندى والببغاوات وريش النعام وتراب الذهب ، وتعود القوافل محملة بالخرز والمرجان والكهرمان والسيوف .

ومختلف الثياب التى يعدها المصريون مناسبة لذوق هؤلاء الأفارقة .

أما عن ثياب النساء فإنه لابد للإنسان من أن يعترف بأن ثياب الشرقيات أفخر بكثير من ثياب الأوربيات ، وأن بعض أشكال غطاء

الرأس عندهن أجمل مما تلبسه الأوربيات .

ويظل نيبور فى رحلته راصداً لعديد من المظاهر الاقتصادية والثقافية فى مصر فى هذه الفترة فينتقل من أعيان القاهرة إلى وسائل الترفيه ورقيها بالمقارنة بما كان فى الغرب فى ذلك الوقت إلى الآلات الموسيقية ، والأكثر من هذا كله أن يذكر المسرح فى هذا الوقت فى القاهرة فيشيد بهذه الفرقة التمثيلية التى كانت تتكون من مسلمين ومسيحيين ويهود ، كما لم يفت الرحالة الغربى أن يفيض فى الحديث عن الآثار وعن الأهرام

فإذا استعدنا هذا الانبهار الذى تحدث به الرحالة الغربى عما فى مصر قبل ربع قرن من مجىء الحملة الفرنسية ، وما كانت تشهده البلاد من تطور حضارى كان قمينا به أن يتطور إلى النضج لو لم يأت الغرب ، لتمهلنا عن السؤال الذى يفرض نفسه هنا :

من الذى أثر ومن الذى يتأثر ؟

وهو سؤال نرجئ إجابته إلى الرحالة العرب الذين جابوا المنطقة العربية فى القرون السابقة لحملة نابليون .

***

لقد كان عديد من الرحالة الفرنسيين بمثابة موجات تجسس متلاحقة مهدت للحملة ، ومن ثم ، فإنهم بدلاً من أن يسهبوا فى التاريخ الاقتصادى أو التجارى - أو حتى الثقافى المزدهر - (كما رأينا من قبل عند نيللى حنا وعبد الرحيم عبد الرحمن وبيتر جران خاصة مقدمته النظرية .. وغيرهم) يتحدثون كثيراً عن التخلف والجهل والجمود والاستبداد الشرقى وما إلى ذلك مما نجده فى كتب الغرب عن الشرق فى هذا الوقت ، وهو أمر لم يتوقف منذ الحروب الصليبية على الرحالة فقط ، ولكنه تحدد أكثر - فى فترات تالية - عند هذا الطراز الذى كان

هدفه الرحلة - فى الظاهر - التجسس ورصد الواقع العربى فى الباطن ، وهو ما تقترب معه وجهة الرسالة الأخرى .

إن رسالة استاذ التاريخ الحديث والمعاصر بآداب القاهرة تبتعد عن العيون الغربية وتقترب - أكثر - من الرحالة العرب .

كتب د . محمد عفيفى رسالة إضافية جاء فيها :

ولقد درجنا من قبل على الركون إلى أقوال الرحالة الغربيين . . فلماذا لا نرى مصر من خلال عيون شرقية أقرب إلينا . ونرى هل استمرت مصر فى لعب دورها التاريخى فى وسط عالم الناطقين بالعربية حتى فى العصر العثمانى الذى وصف بالجهل والعزلة والتخلف . إننا فى الحقيقة نجد «استمرارية» تاريخية عند الرحالة الشرقيين عن هذا الدور قبل وأثناء العصر العثمانى .

يقول ابن بطوطة الرحالة الشهير عن مصر القاهرة : «وصلت إلى مصر . هى أم البلاد وقرارة فرعون ذو الأوتاد . . شبابها يجد على طول العهد . قهرت قاهرتها الأمم . وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد .

وفي القرن السابع عشر - العصر العثمانى - يصف الرحالة أبو عبد الله القيسى مصر قائلاً :

«يا لها من قاهرة ما أحسنها وأبدعها ، أوفى البلاد طهرة وأزكاها فطرة . . فنسى كل غريب وطنه وود لو ان فيها يقضى عمره وزمنه» .

وفى القرن الثامن عشر - السابق على الحملة الفرنسية - يصف الرحالة المورتيلانى الجزائرى مصر قائلاً : «وبالجملة فمصر أم البلاد شرقاً وغرباً ، لا تستغرب شيئاً مما يحكى عنها» .

تنتهى رسالة أستاذ التاريخ وهو يسأل مستغرباً إذا كانت هذه هى حالة مصر ، كما عرفناها من الرحالة العرب : فهل ننسى عدة قرون

عاشتها مصر ونحتفل بثلاث سنوات هى عمر «الحملة» ؟

سؤال يعيدنا للسؤال السابق :

إذا كان ذلك كذلك ، فمن الأجدى أن نقول بنظرة شمولية :

من الذى أثر ومن الذى تأثر ؟

وللإجابة عن السؤال لا يجب أن نقرأ التاريخ من الفصل الثانى ، فلا يجب أن نرى فى (العولمة) علامة اطراد وتقدم دون أن نعرف ما سبقه من المغامرات الأمريكية الشرسة شرقاً وغرباً فى العالم كله بالمرحلة الإمبريالية ليصل إلى الرأسمالية ويطورها فى اتجاه المصلحة ، المصلحة لا الأخلاق .

غير أن لحديث العولمة وعلاقاتها بنابليون موضع آخر ◆

نابليون .. هل كان (أبو) العولمة .. ؟!

ما يثار الآن كثيراً حول العولمة يثير سؤالاً هاماً :

هل العولمة ظاهرة تاريخية أم هى معاصرة ؟

وبشكل آخر :

هل عُرفت الظاهرة فى السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر أم هى نتاج السنوات الأخيرة من القرن العشرين ؟

وتزيد الحيرة هنا أن هذا يحدث فى مناسبة مرور (٢٠٠) مائتى عام على غزو الحملة الفرنسية لمصر .. وما يدور حولها من أخذ ورد .

وهو ما يطرح سؤالاً جديداً :

هل كان نابليون - فى عصره (أبو العولمة) ؟

أو أنه كان أحد رموز العولمة فى مراحلها المتتابعة ؟

والإجابة عن كل هذه الأسئلة تهمنا فى المقام الأول سواء لتحديد موقف بونابرت كاستعمارى - لا كرسول حضارة كما يزعم البعض ، وأيضاً ، تحديد موقفه فى دائرة العولمة (الأمركة) التى نعيش فيها الآن .

والواقع أننا لا نستطيع أن نخرج من هذه الحيرة دون أن نشير إلى تطور الظاهرة - تاريخياً ، قبل أن نصل إلى ممارستها (النابليونية) فى السنوات التى قضاها القائد الفرنسى فى مصر ..

***

تتعدد الآراء وتتحدد منذ السنوات التى عرفت ببدء الكشوف الجغرافية فى الغرب فى القرن الخامس عشر هى التى مهدت لهذه الظاهرة .

وإذا أردنا تاريخاً محدداً يهمنا أكثر ، لتوقفنا عند القرن الثامن عشر ففى هذا القرن كانت أوربا قد عرفت تطورات إنسانية كثيرة .

ويتبنى السيد ياسين رأى روبرت بروتسون (فى ندوة العرب والعولمة التى عقدت ببيروت) الرأى القائل أن هذه الفترة من منتصف القرن الثامن عشر حتى قرب منتصف القرن التالى كانت هى مرحلة النشوء ، فقد حدث تحول حاد فى فكرة الدولة المتجانسة الموحدة ، وأخذت تتبلور المفاهيم الخاصة بالعلاقات الدولية ، وبالأفراد باعتبارهم مواطنين لهم أوضاع مقننة فى الدولة ، ونشأت الاتفاقات المتعلقة الخاصة بتنظيم العلاقات والاتصالات بين الدول . بدأت مشكلة قبول المجتمعات غير الأوربية فى المجمتع الدولى . بدأ الاهتمام بالموضوعات القومية والعالمية .

غير أن مرحلة الانطلاق عرفت فى هذه الفترة التى خرج الجيش الفرنسى من بلاده ليغزو إنجلترا فلما وجد صعوبات اتجه إلى عدة دول أوربية مر فيها بإيطاليا قبل أن يصل إلى مصر ، فى هذه الفترة ظهرت مفاهيم كونية ومفاهيم تتعلق بالهويات القومية والفردية ، وتم إدماج عدد من المجتمعات غير الأوربية فى المجتمع الدولى وبدأت عملية الصياغة الدولية للأفكار الخاصة بالإنسانية ومحاولة تطبيقها ، كما حدث تطور هائل فى عدد وسرعة الأشكال الكونية للاتصال .

وهذه هى الفترة التى جاء فيها نابليون إلى مصر وهو يحمل فكرة تطبيق الزمن العالمى (وإن احتفظ بتطبيق تقويم للجمهورية الفرنسية) وبعض الأفكار العنصرية ، كما تبنى عدة أفكار كانت نتاج التطور العالمى ممثلاً فى بيانات الثورة الفرنسية سواء ما جاء إبان قيام الثورة فى فرنسا أو عبر بيانات الثورة / الحملة فى مصر فيما بعد .

وقبل الاستطراد حول تبنى نابليون للنزعة الإنسانية لابد من تحديد نستطيع فى ضوئه رؤية موقع الحملة الفرنسية من التطور الزمنى الذى انتهى بالعولمة فى نهاية القرن العشرين .

***

يجب ان نسارع بالقول هنا : إن نابليون وإن تبنى مقولات وأفكاراً تنتمى فى بعضها إلى العولمة كما هى معروفة الآن ، وأن ما جاء بها إنما كان مرحلة من مراحل تطور هذا المفهوم . ففى هذه الفترة المبكرة من تاريخ العالم ، لم يكن من الممكن أن نصف زمن بونابرت بأنه زمن العولمة وإنما نستطيع أن نطلق عليه مرحلة من هذه المراحل ، ونستطيع بشكل أدق أن نسمى هذه المرحلة مرحلة العالمية ، والعالمية مفهوم يغاير تماماً مفهوم العولمة .

ومراجعة أكثر من معجم يتضح لنا هذا المفهوم ، فبالعودة إلى معجم ويستراژوا كامبردج (١٩٩٦) سنجد أنفسنا أمام معنى مغاير لما فى ذهننا عن العولمة منذ فترة مبكرة فالعولمة Sibalization فى هذين المعجمين تشير إلى معان تقترب من العالمية Universalisation ، وفى حين نعرف فيما بعد أن العولمة تهدف إلى استخدام العنف الثقافى فى إقصاء الخصم وقمعه والإحلال بدلاً منه ، فإن العالمية تظل هى طموح الارتفاع إلى كل ما هو إنسانى واستخدامه لما هو خاص ، وإن ظل مصطلح العالمية هنا تابعاً - فى تفسيره - إلى العولمة وبينما تطرح العالمية أفكاراً إنسانية قد تقبل بالتبادل بين الثقافات حين يحدث تداخل أو امتزاج) فإن العولمة تسعى إلى سلب الخصم لفرض إرادته وهويته ، وبالتالى نفيه من العالم وفى حين سعى نابليون للهيمنة على الخصم لفرض إرادته بالمفهوم الإنسانى ، فإن بوش (وكلينتون فيما بعد) سعى إلى أكثر من ذلك عبر (الرأسمالية الوحشية) كان من الممكن أن نلحظ فى القرن الثامن عشر تطور المركزية الأوربية ممثلة فى صراعات دول أوربا نفسها ، وهو ما تطور أكثر فى تبنى فكرة (الاستعمار) الذى تبلور باسم آخر هو (الحضارة) ثم فى مرحلة تالية إلى (العولمة) .

وإذا كان الفرنسيون فى عصر المركزية الأوربية اعتبروا أن من

واجبهم تعميم أفكار الثورة الفرنسية - وإن لم يكتفوا صادقين فى حالة تطبيقها على الشعوب ، كما رأينا فى الكتابات السابقة - فانهم لم يكتفوا بالحديث عن دور فرنسا الحضارى فيما بعد وفى جميع الحالات مثل نابليون فى عالميته مرحلة من مراحل (العولمة) وتمهيداً لها كان يسعى إلى السيطرة على العالم فى صراعه مع إنجلترا ، وتكوين الإمبراطورية (العالمية) ، وهو ما كان يظهر - منذ فترة مبكرة - فى أفكاره إبان الحملة وبياناته وصحفه ، وأحاديث الكثير من مثقفى الحملة الفرنسية فى مصر وذكريات جنوده فيما بعد ، بل وفى ذكرياته هو نفسه - بعد نفيه - وهو ما يقترب بنا من وعى نابليون لهذه المفاهيم .

***

إن هذا الوعى البونابرتى لمعنى السيطرة والهيمنة الكاملتين نجده فى حياته الطويلة ، وسوف نكتفى بعدة أمثلة هنا تغنى عن مئات الأمثلة والمواقف الأخرى . وسوف تحدد هذه الأمثلة حول الربط بين الإمبراطورية الفرنسية - كما كان يراها - والإمبراطورية الرومانية (العالمية) فى أوج توسعها وسيطرتها على العالم .

إن نابليون - كما لاحظنا مراراً - لم يكن ليكف عن الحديث فى فتوحاته إلى المدن الإيطالية (الرومانية) ، وتلاحظ د . ليلى عنان فى دراستها الأخيرة حول الحملة إن الحرب التى بدأت بالفعل كعودة إلى سياسة فرنسا الأزلية ، تحولت سريعاً إلى الرغبة فى التوسع ، وأصبحت تلك الرغبة هى الهدف الحقيقى لهذه الحروب . وتكرر الإشارات الكثيرة إلى جنون العظمة الذى انتاب خلفاء روما ، كما رسمه لهم الفنان دافيد صاحب اللوحات الكلاسيكية الشهيرة عن تاريخ روما ! وكانت هذه الرغبة فى التوسع أحد مظاهر هذا الجنون وهذا التقمص للشخصية الرومانية الفذة .

وعلى هذا ، لم تكتف الثورة الفرنسية عن محاولة الوصول إلى حدود الإمبراطورية الرومانية فى أوج توسعها ، وإنما تلمست أيضاً القانون الرومانى كرغبة دفينة فى التوسع العالمى والهيمنة بحيث تصبح الثورة وحكومة الإدارة - بالتبعية - عالمية النزعة . ولم يكن هذا النزوع إلى العالمية لدى المثقفين الفرنسيين فقط ، وإنما كان يمكن رصده لدى السياسيين قبل خروج الحملة من فرنسا أو بعد وصولها إلى مصر ، وعلى سبيل المثال ، عندما تقدم الوزير (تاليران) مثلاً بمشروع غزو مصر لحكومة «الإدارة» قال عبارة لا تخلو من معنى :

«كانت مصر مقاطعة فى الجمهورية الرومانية ، فيجب أن تصبح للجمهورية الفرنسية»

وعلى هذا يمكن تفسير كيف اختار نابليون (لقب القنصل الأول) لقباً يحكم به فرنسا التى أصبحت الآن تستحوذ على بلاد كثيرة ، فحينما تخلصت من ملوكها الطغاة وتحولت إلى الجمهورية المثالية التى حكمت العالم بقوانينها العادلة ورجالاتها النزهاء الوطنيين . أصبحت كلمة قنصل - كما تلاحظ د . عنان أيضاً - لقباً للحاكمين اللذين يتقاسمان السلطة العليا فيها . وبما أن الثورة وصلت - كما توهم مشرعوها - إلى ذروة المجد والفضيلة ، وحلت محل روما وتقمصت دورها ، فقد أنشئت حكومة جديدة بعد الانقلاب بها ثلاثة قناصل ، وكان بونابرت القنصل الأول فيها ، فهو التجسيد الحديث للقائد الرومانى المنتصر بزيه الوطنى الفاضل . كان يلقب بالجنرال الجمهورى بالمعنى الرومانى للكلمة ، وبكل ما توحى به الكلمة من فضائل ، تستمد رموزها من نزاهة وتمجيد القانون الرومانى ، وهو المعنى الذى نفهمه من أحد ضباط بونابرت فى مصر (جوزيف مارى) ، فهو ينقل لنا كثيراً من بيانات نابليون ومواقفه فى مصر ليؤكد هذا المعنى ، ففى

١٠ مايو ١٧٩٨ يقول بونابرت في بيانه إلى الجنود :

ولقد كانت فيالق الرومان التى اتخذتم منها أحياناً مثلاً تحتذونه ، وإن لم تبلغوا شأوها ، تقود المعركة تلو الأخرى فى «زاما» وكان النصر دوماً حليفهم ، لتحليهم بالشجاعة والصبر على الشدائد ، والتزامهم النظام والتوحد» .

وعلى هذا النحو ، مثل نابليون مرحلة متقدمة من مراحل (العولمة) فى تطورها إبان «مرحلة الانطلاق» - وهو تعبير روبرتسون - نحو تطور العولمة إلى الصراع من أجل الهيمنة التى استمرت إلى منتصف الستينيات من هذا القرن على وجه التقريب وإلى أن أصبحت العولمة فى التسعينيات واقعاً يعود بمرجعيته الأمريكية إلى الأمريكيين وعاد بمرجعيته الأوربية - بالتطور التاريخى - إلى السيطرة الأوربية .. إنها (العولمة) الغربية بشكل ما .

***

وقد لا يخلو من مغزى أن الفرنسيين الآن - كجزء (من المركزية الأوربية) - يرفضون هذه العولمة الأمريكية فى (الجات) [*] فراحوا ينتزعون مصطلح (الاستثناء الفرنسى) ، وحاولوا أن يحافظوا على هويتهم من هذه الرأسمالية المتوحشة . فى هذا السياق . إن استخدام الفرنسيين للألفاظ يحمل هذا المعنى ، ففى الصحف الفرنسية لا نقرأ مصطلح العولمة بالمفهوم الشائع Globalization وإنما يستخدم بدلاً منه المفهوم الفرنسى الخالص Mondialisation فهم يرونها أوربية وليست أمريكية ، لانهم يرفضون أن يروها كذلك وهو يحمل معنى استعمارياً مضمراً .

(*) انظر كتابنا (الجات والتبعية الثقافية) ، مركز الحضارة العربية ، القاهرة ١٩٩٧ ، أيضاً ط٢ مكتبة الأسرة ، هيئة الكتاب ١٩٩٩ .

بقي أن نقول إننا الآن - فى نهاية القرن العشرين - أقل مقاومة وأقل تماسكاً مما كنا عليه فى نهاية القرن الثامن عشر .

لقد استطاع أجدادنا المقاومة بإرادتهم التى افتقدت السلاح النارى والمدفعية وآلات الحرب التى كان الغرب قد عرفها ، أما الآن ، فإنا نفقد الكثير ، مما يخفيه الغرب عنا ، ويحاول (العولمة) بمعناها الأمريكى الصرف .

ترى متى نعي جيداً مخاطر (العنف الثقافى) الجديد ونحاول مقاومته بالإرادة والفعل فى آن واحد ؟ ◆

المثقف .. والمسيخ الدجال !!

لا أعرف لماذا تذكرت هذا الخبر وأنا أقرأ ما يكتبه عدد كبير من الكاتبين عن الحملة الفرنسية ونابليون وشاتوبريان وغيرهم .. الآن ؟

والخبر يقول أن : «خطيباً بالعاصمة وقف فوق المنبر وبلهجة واثقة راح يؤكد أن سياسة إسرائيل وأمريكا تطابق تماماً سياسة المسيخ الدجال ، وهو ما يوحى باقتراب الساعة ووسط صيحات المصلين استطرد قائلاً : إن المسيخ الدجال سوف يخرج من مثلث برمودة ، وهو الشيء المشار إليه فى الرسومات إذا تم طرحهما يمكن معرفة عدد السنوات المتبقية بالضبط على ظهور هذا المسيخ وبالتالى يمكن معرفة قيام الساعة» .

ينتهى الخبر وتبدأ التساؤلات .

ولعل القارئ الكريم يسأل معى - ويعجب - لماذا تذكرت صورة هذا الخطيب وأنا أقرأ لهذا الكاتب الكبير أو ذاك فلا أعرف منه أنه قرأ المصادر الأساسية عن الحملة ، أو عرف التقارير والرسائل والدراسات وما أكثرها التى كتبت عن مصر فى فترة مجيء الحملة - فضلاً عن كتابات مدرسة التاريخ الحديث فى فرنسا - ليصل من هذا كله إلى يقين أو شبه يقين يدفع به ليكتب عن الحملة .

قد نجد إجابة لهذه الأسئلة .

***

ربما هذا جزء من الإجابة ، لأن كتابنا فى قضية الحملة الفرنسية (وقضايا كثيرة أخرى معاصرة كقضية العولمة أو قضية الصراع العربى

الإسرائيلى منذ نصف قرن .. إلخ) لا يشغلون أنفسهم بالكتابات والوثائق الكثيرة التى كتبت عن الحملة منذ غادر نابليون مدينة «تولون» فى أسطول ضخم ليهبط بالإسكندرية فى أول يوليو منذ مائتى عام .. ولماذا يجهدون أنفسهم و (المرجعية) التاريخية لعلاقتنا بفرنسا لا تحتاج كل هذا الجهد ؟

ولماذا يهتمون والعلاقات المصرية الفرنسية هذه الفترة تأخذ شكل (الاحتفالية) التى تحدد المواقف عليها دون تفاصيل كثيرة ؟

ولماذا يرجعون إلى المكتبة الأهلية بباريس (حيث وثقت وثائق الحملة وأوراقها فى أجهزة معلوماتية حديثة) أو مكتبة القاهرة (حيث جاء المثقف كامل زهيرى بآلاف الوثائق عن الحملة وما بعدها ..) .

ولماذا يهتم هذا المثقف أو ذاك وهو يسمع (تحيا ثقافة السماع) أن نابليون استطاع أن يحضر إلى البلاد بمكتبته ومطبعته ، وأن علماء الحملة قاموا بالبحث والتنقيب وعمل المقاييس ورسم الرسومات ومسح المناطق فى كل البلاد ونقل أمهات الكتب التراثية وعديد من قطع الآثار المصرية مع رجال الحملة حين ذهبوا من مصر ؟

لماذا يرهق المثقف نفسه ، وهو فى إمكانه - على طريقة الخطيب - أن يتحدث إما عن الدور الحضارى الكبير الذى لعبته فرنسا فى تحضير مصر وإخراجها من العصور الوسطى ، أو - على الجانب الآخر - إذا لم يصدقه أحد راح يتحدث عن فترات من التاريخ استطاع آخرون أن يلعبوا هذا الدور لتحضير مصر (المحروسة) خائضاً فى سيرة الإسكندر وخلفائه أو المعز الفاطمى وفتوحاته أو .. حتى جاء نابليون ليتفوق على قمبيز ويقلد الإسكندر ويتحضر أكثر عن جنكيز خان أو هولاكو .. لاعناً هؤلاء الأصوليين الذين يغضبون من الغازى (بونابرته) الذى أضاع البلاد وأهلك العباد .. إلخ

أو يلجأ - متعمداً - ليجامل فيتجاهل العلم إلى المصلحة الخالصة !؟
وما يقال عن الحملة يقال عن قضايا أخرى معاصرة كثيرة .

***

بيد أننا سنرجئ هذه القضايا الكثيرة التي يخوض الغالبية عندنا فيها - بغير علم - ونتمهل عند هذه الحملة الحضارية التي «كانت لها جوانبها الثقافية والحضارية التي بدأت منها نهضتنا الحديثة في أوائل القرن الماضي» - على حد تعبير أحد كتابنا الكبار - فالغريب في الأمر أن لدينا من يعتقد بتأثير الحملة الحضاري بشكل يفوق هذا التأثير - إذا كان ثمة تأثير .

وقد كان أكثر ما آلمني هذه الرسالة التي جاءت من أستاذ مساعد بالقسم الفرنسي بآداب الإسكندرية - د . دينا جمال الدين أمين - وتتحدث فيها عن ضرورة أن نجاوز مرحلة الجمود الفكري إلى ضرورة التفاعل مع التاريخ من منطلق واقعنا ، فقراءة التاريخ من موقع الحاضر هي الوسيلة الحقيقية والفعالة للتعبير عن الذات ، والقدرة على فرض وجهة نظر أو رؤية للتاريخ .

حسن فلننقل أهم ما جاء في رسالة د . دينا ، تقول بالحرف الواحد :

لقد استفاد أعضاء الحملة الفرنسية من ذلك الدرس الذى برهنت عليه الحملة الفرنسية ذاتها التى سرعان ما أصبحت أم الثورات فى أوربا والعالم الجديد ، لقد جاء أبناء الثورة الفرنسية البكر لمصر بروح متفتحة لينهلوا من منبع الحضارة الإنسانية بكامل عدتهم ودون إغفال أى جانب من الجوانب البحثية . جاءوا لمصر راغبين فى التقدم فى العلم والمعرفة والحياة كذلك استفاد أجدادنا من درس الحملة الفرنسية التعبوى والعلمى ، ليطوروا أنفسهم ويؤصلوا هويتهم ويدركوا أهدافهم .

ومن الصواب اليوم أن تبدو لنا الحملة الفرنسية بوجهها الحضارى (لا الاستعمارى) وفى سباق علاقات دولية قديمة ، ومفاهيم حضارية متبادلة مع احترام للاختلاف بالإضافة إلى قيم اقتصادية حديثة لها أسلحتها الفكرية والتكنولوجية التى تحكم بالتخلف على ما دون مستواها . لذلك فإن الخلاف حول الاحتفال بقدوم الحملة الفرنسية إلى مصر ليس بالقضية الأساسية التى تعنينا ، فالاحتفال ليس بالحملة الفرنسية ولكن لكونها رمزاً لتميز علاقتنا بفرنسا منذ ذلك الوقت ، وللتبادل والإثراء المشترك على مر السنوات الطويلة . هناك قصة بين البلدين صنعها التاريخ ليفيد كل منهما الآخر . .إلخ .

وهنا تتداعى تساؤلات كثيرة :

وهل برهنت الثورة الفرنسية - حقاً - أنها أم الثورات بعد أن اختفت القيم الأولى التى ارتفعت مع خروج الجيش الفرنسى إلى دول أوربا لتحولها إلى دول تابعة للإمبراطورية الفرنسية (= الرومانية) ، ثم بعد أن جاء الجيش الفرنسى إلى مصر .

(نكرر المثل الذى سبق وأن ذكرناه فلم يمض قليل على قيام الثورة الفرنسية حتى اختفى المفهوم الثالث من شعار الثورة «الحرية والمساواة والإخاء» ، فأصبح مفهوم الحرية والمساواة أما الإخاء فلا . .) وهو المفهوم الذى أعقبه إجراءات ضد المستعمرات الجديدة بما فيها إبادة الآلاف حتى ولو كانوا من المواطنين الفرنسيين أنفسهم كما حدث فى مقاطعة «فاندية») .

وهل حقاً استفاد أجدادنا من درس الحملة التعبوى والعلمى (نشكك كثيراً فى هذه الاستفادة ، حتى ولو كانت - كما يقال - كرد فعل لهذه الحملة الاستعمارية (لقد عاشت مصر منذ خروج الفرنسيين سنوات فوضى كاملة اختفى فيها أى أثر للحملة بين ١٨٠١ - ١٨٠٥ ،

فضلاً عن أن الوعى بالهوية ، وقد كان فائقاً ، وفى شتى الميادين - كما بينا من قبل - كان ظاهراً منذ نهاية القرن الثامن عشر .. إلخ) .

ثم وهل يمكن القول أن رحلة شاتوبريان (الرحلة من باريس إلى القدس) لمصر - كما أرفقت الباحثة فصلاً عنه - تتعرض للمعنى الحضارى الذى تمثله مصر وفتح باب زيارة مصر فى الأدب الغربى .. إلخ ، فى حين أن شاتوبريان حاول أن يحول الحملة وقائدها إلى أسطورة ويرى أن الإسلام يعادى الحضارة ولا يرى أثناء زيارته إلى مصر بعد ذلك غير أن مصر بها صروح الحضارة التى جلبتها الحملة الفرنسية .. إلخ وقد أسهبت فيه د . ليلى عنان فى كتابها الأخير حول الحملة ، وشاتوبريان فى هذا السياق وأشار إلى مثل ذلك أيضاً إدوارد سعيد فى كتابه عن الثقافة والإمبريالية .

ثم ما معنى الاحتفال بالحملة لكونها رمزاً لتميز علاقتنا بفرنسا ، وهو ما يشير إلى الإصرار على الأثر الحضارى الذى تركته الحملة .

إننا كما يجب أن نحتفل بهذا الرمز يعنى أننا يجب أن نحتفل بالإنجليز الذين أنشأوا السكك الحديدية فى مصر ، وقبلهم بكثير يمكن «الاحتفاء» ثم «الاحتفال» بالهكسوس قبلهم الذين أدخلوا العربة الحربية إلى مصر (كما تذهب بعض الروايات) .. وهكذا دواليك ثم وهل عاد أستاذ الجامعة حقاً لكل ما كتب أو أهم ما كتبه فى موضوع الحملة ومؤثراتها قبل أن يكتب وهو ما يعود بنا إلى القضية الأساسية .

***

وهو ما يعود بنا إلى هذه القضية التى تدهش من كم الكتابات عن - وحول - الحملة وتأثيراتها الحضارية فى حين لم يعرف كاتبونا (أو لنقل أغلبهم) المصادر الأساسية لما يكتبون فى بساطة وإسهاب فى عصر المعلوماتية .

وهى ظاهرة نتعرف عليها فى هذا الكم أو (الكوم) الضخم فى الصحف والدوريات الأجنبية المصرية الآن .

لم يعد دور المثقف اجترار ما يعرف ، وإنما تغير الواقع إلى وعى كونى فى عالم يرتبط جوانبه بشبكة معلومات واتصالات لا تتوقف ثانية واحدة عن بث المعلومات لأية قضية فى نصوص وصور ثابتة ، وأصبح الانتباه واجباً فى عصر الاختراق الثقافى الغربى لهويتنا وكياننا كله .

وحين نخرج من مجال المعلوماتية المتقدمة نصطدم بوعى المثقفين عندنا فى قضية كالحملة الفرنسية وعبر أسئلة كثيرة منها :

من قرأ أرشيفات وزارة البحرية الفرنسية ؟

ومن عاد إلى الوثائق والمراسلات - وهى كثيرة جداً وتتصل بعمليات جيش الشرق إلى مصر تحت عنوان (بيانات الجنرال نابليون) ونظن أن هناك نسخة كاملة منها فى الجمعية التاريخية ؟

ومن قرأ التاريخ العلمى والعسكرى للحملة فى مصر قراءة علمية متأنية ؟

ومن قرأ الكتاب المهم (حملة مصر) للاجونكيير وأعمال آندريه ريمون الذى يزور مصر الآن ؟

ومن عرف وثائق نابليون المنشورة فى عهد الإمبراطورية الثانية ؟

ثم من قرأ (أوراق كليبر) التى نشرها المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ؟

ثم عاد إلى المصادر الأساسية فى العربية فقرأ (عجائب ..) الجبرتى (وقد صدر لها أخيراً طبعة كاملة تحتوى على وثائق وتحقيقات وتدقيقات هامة للزميل عبد العزيز جمال الدين عن مكتبة مدبولى) أيضاً من عرف مخطوطات كثيرة معاصرة للحملة أو لاحقة لها بقليل

كمخطوطة أحمد باشا الجزار .. وصحف بونابرت فى مصر .. وكتاب مثل (درر نحور العين ..) للطف الله بن أحمد .. وكتاب نيقولا ترك (أخبار الفرنساوية ..) فضلاً عن كشاف بعديد من الوثائق الفرنسية فى مكتبة جامعة القاهرة والجمعية التاريخية فضلاً عن المجلدات الضخمة التى تحتاج إلى إعادة نظر بالفرنسية والعربية (نوقشت أخيراً رسالة دكتوراة عن الجزء الخاص بالدولة الحديثة فى كتاب وصف مصر ..) بينما هناك كنوز لم تفض بعد فى كل من المكتبة الأهلية بباريس ودار الكتب المصرية وأيضاً بمكتبة القاهرة والجهد الذى يبذل فى صمت بجامعة عين شمس تحت عناية د . عبد العزيز نوار فى هذا الصدد بينما ظلت بقية المجلدات غامضة بعيدة عن التحقيق الدقيق (يمكن أن تستثنى فى هذا جهد د . أيمن فؤاد فى كتابه المترجم : وصف مدينة القاهرة ..) غير أن طائراً واحداً لا يغرد وحده . أو ، أن مثقفاً واحداً ، لا يستطيع أن يغرد وحده فى وجود عشرات من أمثال المسيخ الدجال ◆

جومار .. هل تعرف جومار؟!

يظن - وبعض الظن إثم - أن كتاب (وصف مصر)، وجومار أحد علمائه، كان أحد الآثار الإيجابية التى تركتها الحملة الفرنسية فى مصر، أو لمصر .

ولأن بعض الظن غير إثم، فقد لاحظنا - وهو قول قد يفاجئ المتحمسين «لوصف مصر» - أن هذا الكتاب لم يكن ليوضع، لو لم يكن وراء ذلك نفع خاص للحملة الاستعمارية، وتحقيق أهداف فرنسا قبل أن يعود هذا أو لا يعود بالنفع على مصر (بغض النظر عن حكاية دهاء التاريخ) وأبرز دليل على هذا أن جزء الدولة الحديثة فى هذا الكتاب بدأ فيه مؤلفه جومار بالسطور التالية : «إن المعلومات التى سنطالعها فيما يلى هى فى الخريطة المساحية للقاهرة ولزيادة نفعها» .

ونلاحظ هنا كلمات دالة شديدة الدلالة مثل «المعلومات» و«كلفنى به» واستكمال الخريطة المساحية للقاهرة «لزيادة نفعها» . بلغة أدق، فإن ما قام به جومار - وهو ما تؤكده كل مصادر هذه الفترة - كان لتأكيد الحماية للفرنسيين وهو ما سنسهب فيه أكثر وقبل أن نستطرد أكثر حول هذا لابد من الإشارة إلى العالم جومار .

.. هل تعرف العالم جومار ؟

هذا جزء من الإجابة عن السؤال حول جومار وجزء من الدولة الحديثة الذى كتبه من «وصف مصر» ..

***

إن جومار - لمن لا يعرفه - هو مهندس وجغرافى وأثرى فرنسى ،

وهو أحد أعضاء البعثة العلمية التى صاحبت الحملة الفرنسية على مصر وعضو فى المعهد العلمى المصرى بين عامى ١٧٩٩ و ١٨٠١ وقد شارك مع آخرين فى تأسيس الجمعية الجغرافية فى باريس فى بداية العشرينيات من القرن الماضى غير أن أهم ما كتبه كان كتابه (وصفه للقاهرة وقلعة الجبل) الذى نقله عن الفرنسية د . أيمن فؤاد(*) وبذل فيه جهداً كبيراً مما حفزنا إلى التنبيه إلى دوره أكثر .

ومراجعة كتاب (وصف مصر) يرينا أنه كان فى الأصل دراسات وتقارير ومذكرات وأوراق كان الهدف من كتابتها أول مرة الإفادة من المعلومات التى تقدم من أجل استقرار الفرنسيين فى مصر ، ويمكن تحديد الفترة التى تم فيها رصد هذه الأحداث وحتى عودة الحملة إلى فرنسا والانتهاء من الكتاب بمجلداته كلها بالفترة التى تقع بين عامى ١٧٩٨ - ١٨٢٢ فى فرنسا والكتاب نفسه يصف القاهرة فى السنوات الثلاثة التى قضتها الحملة فى مصر (وتحديداً بين ١٠ ديسمبر ١٧٩٩ وأواسط فبراير ١٨٠٠) وهى الفترة التى قام بها جومار بجولته فى القاهرة لتسجيل معالم المدينة ورصد المعلومات الهامة عنها فى كل الميادين .

ومهما يكن من الجهد الذى قام به جومار من وصف طبوغرافى وخريطة تفصيلية .. وما إلى ذلك ، فإن الهدف الرئيسى يظل التعرف - أكثر - على القاهرة ليستطيع الفرنسيين السيطرة عليها . وهو ما نقترب منه أكثر فى ضوء مصادر هذه الفترة لعل من أهمها يظل كتاب جومار - الذى نقله بدقة وعلق عليه أيمن فؤاد - فى المقدمة وهو ما يتأكد فى ضوء كتابات أخرى من بينها «عجائب» الجبرتى وأطروحة د.عبد الله عزباوى وبعض المصادر الأخرى ...

***

(*) مكتبة الأنجلو ، القاهرة ١٩٨٨

من ذلك ما يطرح نفسه علينا أثناء قراءة جومار هذا الوجه الحضارى الذى كانت عليه القاهرة رغم كل ما يقال عن تخلفنا وجمودنا ، وهو امتداد للربع الأخير من القرن الثامن عشر ، وباعتراف جومار الآن فى كتاب اجتهد فيه صاحبه ، أنه عاد إلى بعض العلماء والمستشرقين الغربيين من أمثال فونتير ومارسيل وسلفستر دى ساسى نجده يعترف أيضاً أنه ما كتب ما كتب إلا باستفادته بنصوص كثيرة أوردها المؤرخون والكتَاب العرب الذين عاد إليهم من أمثال المسعودى والادريسى وأبى الفدا وعبد اللطيف البغدادى وعبد الرشيد البكوى وابن العميد والذهبى والمقريزى وابن إياس والسيوطى وحاجى خليفة .. إلخ خاصة حين يتعلق الأمر بطبوغرافية القاهرة وظواهرها .

بل إنه استفاد بكتابات عديد من الكتاب العرب أكثر من الغربيين ، وهو قائم فيما كتبه وهو ما يظهر فى الحديث عن المعالم والسكان والصناعة والتجارة والثقافة الدينية منها والعملية فى مدينة القاهرة . وهو ما يؤكده لنا مراجعة ما كتبه جومار . وسوف نختار من هذا عدة ظواهر أخرى دالة على ما كانت عليه مصر فى ذلك الوقت .

***

تتمثل إحدى هذه الظواهر فى الجامع الأزهر لما لعبه من دور إيجابى ليس فى العلوم الدينية فقط ، وإنما فى غير ذلك من العلوم العصرية .

ففى حين يشير الباحث العربى - عبد الله عزباوى فى أطروحته عن الأزهر وعلماء الدين .. من أن العلوم العقلية كالرياضيات والفلك والطب لم تكن لتدرس فى الأزهر وغيره من المدارس الدينية فى مصر فى القرن الثامن عشر ، فإن الباحث الفرنسى - جومار - فى بابه عن المساجد يذكر العكس .

إن جومار الذى لم يكن ليحمل وداً طيباً للمصريين ، بل تعصباً ظهر فيما بعد ، ومع هذا يذكر أن الجامع الأزهر «من بين أقدم الجوامع وموارده ضخمة جداً يصرف القسم الأول منها على تزويد مكتبة وتمويل مؤسسة أشبه بالجامعة كان يدرس بها فيما سلف الطب وعلم الكلام والشرائع والرياضيات والفلك والتاريخ . .» فضلاً عما كان يعلم به المعارف / العامة والعربية الفصحى بعناية فائقة ويسهب جومار فى الأعداد الهائلة التى كانت تتعلم بالأزهر حتى تصل إلى اثنى عشر ألفاً - كما يشير - يطعمون أكثرهم فيه ويوفر لهم المسكن وما إلى ذلك .

فالأزهر إذن :

- لم يقتصر العلم فيه على العلوم الشرعية كما هو شائع ، وإنما العلوم الطبيعية والرياضية أيضاً .

- والأزهر لم يقتصر التعليم فيه على عدد قليل من مصر ، وإنما جاوز مصر ، إلى شتى أنحاء العالم المعروف ، فأصبح أقرب إلى (جامعة ضخمة) وليس داراً للعلم أو (كتاباً) كبيراً ، ويؤمه عدد لا يحصى - كما يقول فى موضع آخر - من الجنسيات المختلفة ، والذين يأتون لتلقى العلم فى القاهرة وعلى الأخص - ولاحظ تعدد الأجناس وتباينها - الفرس والشوام والأكراد وعرب الحجاز واليمنيون والهنود وأفارقة من غرب أفريقيا . . إلخ وذلك دون الحديث عن السكان المنتمين إلى أقاليم مصر العليا والسفلى ، كما يشغل الجامع فى هذه الفترة رواقاً مستقلاً للعميان .

وحين يجىء دور (الكتاتيب) فإنه كان لا يملك غير الثناء على هذه ، الدور التى تُمنح الأموال من (الأوقاف) ، والمفاهيم التى كانت تلقن فى هذه الكتاتيب «رغم بساطتها» فى تعبيره فإنها لم تكن تكتفى بالقراءة والكتابة والحساب ، وإنما كانت - فى تقديره - لم تكن غير «مدخل إلى التعليم الجامعى ، أى الذى يُعطى فى الجامع الأزهر ومدارس

أخرى.. و . . ومن ناحية أخرى فإنه لشيء حسن أن يجد الناس عدداً من الدور المفتوحة التى يستطيعون أن يحصلوا فيها معارفهم الأولى الضرورية فى حين يلقنها فى أوربا ربع أو خمس الآباء لأبنائهم»

وهو ما يشير إلى أن العلم كان متقدماً فى الأزهر ، وكان يدرس داخل الأزهر وخارجه العلوم الدينية والعلمية الأخرى .

فهل مازلنا نتحدث عن القيم العلمية التى أكسبها الفرنسيون للمصريين فى ذلك الوقت ؟

لنتمهل عند ظاهرة أخرى .

***

فبدلاً أن نتحدث عن الدور الإيجابى التى تركته الحملة فى مصر فى ذلك الوقت ، نجدنا نتحدث عن الخراب الذى خلفته فى عديد من المناطق بحكم تأكيد الوجود والبحث عن الأمان وتحصين قواتهم .

وما يعترف به جومار هنا يقول به العديد من المصادر الأخرى وفى مقدمتها مؤرخ معتدل مثل الجبرتى .

إن قارئ الجبرتى - على سبيل المثال - يلاحظ أن الفرنسيين خاصة فى الفترة الأولى من وجودهم فى مصر ، وخاصة إبان ثورات المصريين عليهم أو القلاقل التى كانوا يستشعرون بها - كانوا لا يترددون فى تدمير كل ما يواجههم ، وإبادة كل ما يقف فى وجه استقرارهم فى مصر بغير تردد (وهو ما فعلوه فى فرنسا نفسها عقب الثورة الفرنسية ثم فى الأقاليم التى كانت تحيط بفرنسا كإيطاليا . .) .

إن (عجائب الجبرتى . .) تمتلئ بكثير من هذه العبارات وهو يشير إلى العسكر الفرنسيين :

- إنهم كانوا «يخلعون ويقلعون أبواب الدروب والعطف والحارات . .» .

- إنهم «شرعوا فى خلع البوابات والدروب الغير نافذة أيضاً ..» .

- إنهم «هدموا الأخطاط والجهات والحارات والدروب والحمامات والمساجد والمزارات والتكايا ..» ويمتد الخراب إلى مناطق عديدة يذكرها الجبرتى بالاسم مروراً بالرميلة وصولاً إلى دور الأزبكية وصولاً إلى عديد من المناطق والقرى الكاملة فى الصعيد التى تحرق بسكانها إذا أحس الغزاة منها بالمقاومة .

إن مراجعة جومار ترينا أنه يعترف أنه باستيلاء الفرنسيين على مصر فقدت عدداً كبيراً من المنازل التى كانت تعيق اتصال مركز القيادة ومراكز الفرنسيين الأخرى بالقلعة ، ويعترف بوضوح شديد أن الفرنسيين - وهو يتحدث بضمير المتكلم - : «لم نجد ، فى هذه الفترة ، الوقت الكافى لتشييد شىء هام .. إلخ» .

وحين يشير أن الفرنسيين لم يستطيعوا تنفيذ بعض ما أرادوه من إصلاح ، فإن ما حاولوه فى هذا السبيل يتحدد فى عدة أشياء كانت تخدم رجال الحملة أكثر من أهل البلاد ، فحين يذكر أنه إبان تسجيل كل الوفيات بدقة مع تمييز نوع الجنس «حتى نتعرف على عدد الوفيات» يسمى ذلك إصلاحاً .

ومن ثم ، يضيف « وقد ذهبت كل هذه الإصلاحات بذهاب الإدارة الفرنسية» وكانت الإدارة الفرنسية جادة فعلاً فيما فعلته أو فيما قدرت - على الورق - أن تفعله لصالح البلاد ، ومراجعة مذكرات نابليون بعد أن عاد إلى سانت هيلانة ، يرينا أنه كان كثير الأحلام كلما جاء ذكر مصر ، فهو يتحدث عن المدينة التى كان يزمع الحكم فيها (ليستطيع أن يحكم العالم) وأنه لولا غزو مصر لما استطاع أن يصبح حاكماً لفرنسا ، وفى هذا السياق كلام كثير عن هذه الأحلام التى كان يمكن أن تحيط العاصمة بأسوار من الأشجار ، وتحول جبل (المقطم) إلى مساقط

للمياه.. إلى غير ذلك مما كان يصب فى (أسطورة) حاكم الغرب .

***

بيد أنه لا يجب أن ننهى هذه السطور دون أن نشير إلى عدة ملاحظات ، منها :

إننا فى حاجة إلى إعادة الطرح الذى سبق وأن أشرنا إليه هنا ، وقد طرح بإصرار لدى عدد من الكتّاب لعل من بينهم الأمريكى بيتر جران من أن الحملة عملت على إجهاض التطور الطبيعى الذى كانت تمر به البلاد كما أن روح المقاومة لم تتوقف قط طيلة وجود الحملة فى مصر وإبان العمل على السيطرة بشتى الوسائل التى وصلت إلى حد التدمير الشامل .

ثم - وهو ما يجب إعادة النظر إليه مرة ومرة - إن «وصف مصر» لم يكن أحد الآثار الإيجابية التى تركتها الحملة فى مصر كما يردد البعض حين يتحدثون عن مآثر الحملة الفرنسية فيضيفون إليه شامبليون وبعثات محمد على والسان سيمونيين .. إلخ وهو ما يقول به كثيرون ومنهم جومار نفسه حين يتحدث عن «وصف مصر» .

وهو ما يدفعنا إلى إعادة طرح سؤال جديد هو :

«وصف مصر» أم «وصف فرنسا» ؟

هذا هو السؤال .. ◆

(وصف مصر) .. أم (وصف فرنسا)؟!

أشرنا من قبل إلى كتاب الحملة (وصف مصر) .

وأشرنا إلى المغالاة لدى الفرنسيين - ورائهم المتفرنسون - فى الأثر الحضارى الذى تركه (هكذا) علماء الحملة ، وهو أثر لا يتعدى كونه لونًا من ألوان الزيف ، فما حرص علماء الحملة عن الكتابة عنه كان لنوازع فرنسية كثيرة فى المقام الأول .

فإلى جانب أن ما كتب ، كان فى الأساس دراسات وتقارير وأوراق .. إلخ قصد بها تأمين وضع الحملة فى مصر وتأكيد دورها العسكرى ، فإن هناك نوعاً من (الفوبيا) أمسكت بتلابيب الفرنسيين عن الحضارة الفرعونية وأساطيرها التى كانوا يعيشون فيها ، ومن ثم ، حرصوا على ان يتعرفوا على آثار مصر القديمة - وبالتبعية - آثار (ألف ليلة وليلة) الممتزجة فى أذهانهم بحريم الشرق وعوالمه الغامضة ومفرداته الساحرة ومن هنا ، فإن المتمهل عند كتاب (وصف مصر) لا يزيد على أن يكون تصوراً نفسياً و«أمبريقيا» للفرنسيين القائمين فى مصر سواء أكانوا علماء أو علميين أو فنانين .

لقد بدأت الأمور أمنية .

هذه حقيقة لا مراء فيها .

واتخذت الصورة تشكيلات كثيرة لا تمت إلى الأصل بصلة .

ولعبت العنصرية فيها دوراً مؤكداً .

وفى جميع الحالات أصبحت نوعاً من (السيكولوجية الذاتية)

إذا جاز لنا استخدام هذا المصطلح للتعبير عما انتهى إليه الفرنسيون فى مصر .

***

امتزج بالأمن «الفوبيا» وزيد إليهما الأسطورة وأصبح حاصل هذا كله هذا الزيف الذى يريدون أن يجعلونا نصدقه .

والغريب أن عدداً كبيراً من الجانب العربى صدق هذا الزيف إما لضعف التحصيل أو لعنف التأثير ..

وليس من المصادفات أن يسمى القرن الثامن عشر فى الغرب (بقرن شهر زاد) .

اختلط الأمن بالهوس .

فإذا بنا أمام (حالة) الفرنسى نفسه وليس المصرى بأية حال والأكثر من هذا ، فمن كان يبحث عن المصريين فى وصف مصر قلما يجد الصور المشرقة للمصريين من الطبقات الوسطى أو الأرستقراطيين ، وإنما كان التركيز - وهو ما لا نخطأه فى جزء الدولة الحديثة فى وصف مصر لجومار - على الطبقات الشعبية ، وهذه الفئات المغرقة فى البؤس والفقر ، فجومار - على سبيل المثال - حين يتحدث عن عادات المصريين يترك رجال جامع السلطان حسن (الرائع) - على حد وصفه - ليغرق فى وصف حالة من البؤس للطبقات الشعبية ، وكأنه يختارها اختياراً ، يقول :

«منازل ضيقة حتى إننا ندرك بالكاد أن آدميين يمكنهم العيش بها ، فهى وضيعة وصغيرة حتى ليظن أنها مخصصة على الأرجح للكلاب . فهى أكواخ مستديرة ارتفاعها أربعة أقدام ومبنية من الطين الممزوج ببعض الطوب ومفتوحة من أعلاها / وتعيش عائلة كاملة فى هذه الجحور التى يبلغ قطرها أربعة أقدام ، ويدفع بؤس هؤلاء الناس المرء إلى التراجع تقززاً واشمئزازاً . وتصدق نفس الملاحظة على المبانى

المتداعية فى المنطقة ، والتى بالرغم من أنها تبدو فى الظاهر فى هيئة لا بأس بها ، إلا أننى بمجرد الدخول إليها أخذت برائحة منتنة وفوجئت بالقذارة الشنيعة السائدة بها ، كما أن ...» .

وتتواصل الصور التى يريد الكاتب أن يصفها لنا أو ينقل دلالاتها الخفية لنا ، وكأنه يريد أن يعكس حالة الفرنسيين المتحضرين فى هذا المكان المتخلف فى الإطار العام أن المنازل ضيقة وهى أقرب إلى الأكواخ منها إلى المنازل (لاحظ ارتباط هذا الوصف بوصف الهنود الحمر) .

وأن عائلات بكاملها تعيش فى مثل هذا الكوخ أو الجحر ، والآدميين كالكلاب !!

فضلاً عن الاستطراد فى أكثر من موضع عن القذارة التى يتقزز المرء منها ، نحن بالطبع لا ننكر وجود مثل هذه الأكواخ والبائسين فيها ، بل لا ننكر أنها موجودة حتى يومنا هذا فى عديد من مناطق مصر ، غير أن المهم لدى جومار ، أنه يركز على هذه النقاط أو المناطق ، ويتحدث عنها كثيراً ، ويدفع فنانيه ليعيدوا رسمها عبر رموز لها دلالة ما انتهى إليه الشرقى فى نظر الغرب ، أو فلنقل ، هذا الكائن المتخلف البائس فى مواجهة الغرب .

أليست هى الشوفونية .

أليست هى العنصرية المعاصرة .

والآدميين (كالكلاب) .

فإذا آثرنا أن ننقل هذه الصورة البشعة التى أثارها جومار ، لدينا - على الجانب الآخر - صور أخرى بعضها يغلو فى هذا الواقع ، وبعضها الآخر يغلو - على المستوى الأخلاقى - فى الواقع النفسى والاجتماعى والثقافى لهذا الشعب ، وكأنه يغلو فى وصف تصور الفرنسى لنفسه وحياته فى هذا الواقع .

وهو ما يدفعنا إلى أن نذكر القارئ الكريم من آن لآخر - وهو ما نعتذر عنه - لهذه الصورة التى يصنعها علماء الحملة وفنانوها فى مصر لفرنسا وهو ما ينتقل بنا إلى صور أخرى .

إن جومار كان يدرك ، أو لا يدرك أن ما يفعله هو (وصف) لفرنسا . ومن هنا ، فهو كان يعمد أحياناً إلى الوصف الشائن للمصريين ، وفى الوقت نفسه ، كان متنبهاً لهذا الواقع ، وذلك الوصف الذى سوف يمليه إلى كاتبه ، وهو ما تصوره لنا مشاهد القاهرة الأخرى ، وخاصة حين يصل إلى المؤسسات الخيرية بها .

إنه بعد أن يعرض لشكل المبالغ المخصصة للأعمال الخيرية وكيفية تنظيمها ببراعة ودقة من المصريين يعترف فى السطر التالى مباشرة قائلاً :

« كانت لدينا فى أوربا معلومات خاطئة عن مؤسسات الإحسان عند المشارقة وعن الإهمال المطلق لحكامهم فيما يخص الإعانات العامة » .

ويسرف صاحب جومار هنا ، ليعترف أكثر ، أو بشكل أكثر إيلاماً أنه إذا كانت توجد فى البلاد ملاجئ مثل هذه الملاجئ التى تعرفها المؤسسات الغربية ، فإنه كان فى مصر وسوريا (ملاجئ للعميان من زمن بعيد)

وإذا كان بعض الملوك الفرنسيين أنشأوا هذه الملاجئ فى فترات سابقة ، فإن المصريين سبقوهم قبل هذا بوقت أطول ، وعلى هذا النحو ، يصف جومار (حالة) العالم الفرنسى الذى يقول (وهو هنا جومار) ما يلى :

« وهكذا فقد أعطى لنا المشارقة المثال الأول »

وما يقال عن الملاجئ يقال عن الظواهر والمظاهر الأخرى ، فهو فى باب (الكتاتيب والأسبلة .) يقف مندهشاً أمام هذا الكم المروع من الأسبلة - وهى من أعمال الخير - ليقول فى عجب :

« لا توجد مدينة أوربية تحوى هذا القدر من الأسبلة » .

وهو ما ينتقل بنا إلى وصف اجتماعى آخر وأكثر دلالة .

***

إنه حين يصل إلى (الأديرة والكنائس يدهشه هذا الواقع الذى كان هو والأوربيون يجهلونه تماماً ، إنه - على العكس مما هو شائع فى الغرب يجد حالة من الرحابة وعدم التعصب تدفعه لإبداء دهشته الشديدة فيما يرى ، ويسلمه إلى قدر من الإعجاب يحاول أن يسيطر فيه على زمام فكره وإعجابه .

ان دهشته تزيد ، وتتحدد فى هذه العبارة :

«إننا سندهش من أن الدهماء الكثيرة الجهل والتى تعد متعصبة بدرجة كبيرة ، لا تسب اليهود أو المسيحيين الكاثوليك والأقباط والأرمن والسريان والروم .. إلخ»

إن مصر بها ديانات كثيرة ، ومذاهب أكثر ، غير أن الحرية تسود فى كل أنحاء الوادى ، وهو من آن لآخر ، كلما رصد لظاهرة لافتة لديه كحرية الكنائس يقول ، وكأنه يفاجأ :

«وهذه أيضاً نقطة لدينا عنها فى أوربا أفكار غير مطابقة للحقيقة»

ويلتفت لظواهر غريبة كل الغرابة لدى المفهوم الغربى عما يحدث فى مصر ، وهذه الظاهرة نلخصها فى عبارته التى يسهب فيها حول الحى اليهودى ومعابده وسكانه ، يقول حين يصل إلى فصل الحارات :

«ومن الأشياء الجديرة بالملاحظة أنه فى وسط هذا التجمع اليهودى الكبير يوجد مسجد»

وكان المجتمع المصرى فى بداية القرن التاسع عشر لا يعرف أجناساً أو أدياناً أخرى ، وهو تعبير يمكن أن ينعكس على الفهم الغربى لنا أكثر من كونه وصفاً يعكس الواقع المصرى ، وهو ما ينتقل بنا إلى ظاهرة أخرى .

***

وهذه الظاهرة ترتبط بالحضارة والعلم أكثر من أى شىء آخر ، كان الغربيون يتحدثون-في ذلك الوقت، وحتى الآن- عن عكس هذا الواقع المزدهر لدينا ، بل الغريب أننا أمام من لا يزال يتحدث حتى الآن عن الواقع الحضارى المزرى التى جاءت الحملة الفرنسية (من أوربا) لتجدنا فيه .

والكثير من الكتاب ، من المثقفين (وهو أمر يدعو للألم) مازال يرانا متخلفين ، خاصة ، حين يتعلق الأمر بهذه الفترة التى جاءت فيها الحملة الفرنسية إلى بلادنا وبعيداً عن ذكر أسماء كثيرة ، فقد أشرنا إلى كثير منها من قبل ، فسوف نتوقف عند هذا الوصف الذى يكتبه أوربى / فرنسى.. عاش مصر فى هذه الفترة التى تتحدد بنهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر لنر إلى أى مدى :

أولا - يخطئ مثقفونا كثيراً فى الحكم على الواقع الفكرى والحضارى لنا حينئذ .

ثانياً - يمضى فى هذا السبيل عدد من الغربيين ممن تخدم هذه الأفكار أهدافهم السيئة

فلنتمهل أكثر عند هذا الجانب .

من الملاحظ أن كثيراً مما يأتى به علماء الحملة إنما يعبر عما يريدون - وهو استنساخ أشرنا إليه فيما سبق - وهو ما يدفعنا إلى رؤية الغرب لنفسه فى مرآة هذه المغامرة الفاشلة إن جومار حين يتمهل عند سكان القاهرة - على سبيل المثال - يتحدث كثيراً عن الصورة الصافية التى يجدها فى كثير من مناطق العلوم ولدى المتعلمين ، بل يشير بإعجاب إلى ظاهرة أثناء إشارته إلى وجود عدد كبير من السود والزنوج والحبشيين والنوبيين فى مصر ، والذين يعملون فى أعمال وضيعة إلى حد ما لطبيعة هذه الفترة ، وهذه الظاهرة تتمثل فى أن الكثير من هؤلاء ممن يعملون فى المنازل كخدم - على سبيل المثال - إنما يعاملون معاملة

طيبة ، وكان هذا شيء شاذ فى هذه البلاد الشرقية ومصر بوجه خاص ، وهو بعد أن يشير إلى ذلك يقتضب التفسير حين يردف ذلك بقوله :

«وترجع دماثة معاملة السادة لعبيدهم إلى أسباب سيكون من قبيل الإطالة استعراضها هنا»

وهو يتوقف عند ملاحظة تؤكدها الحقيقة والتكوين المصرى بدوائره الحضارية منذ الزمن البعيد ، وهى أن المصريين أقرب إلى الأوربيين من سكان أفريقيا فى الجنوب من الحبش - على سبيل المثال - وكيلاً تتماوج ملامح الصورة التى ينقلها جومار ، فسوف ننقل نحن - بدورنا - عبارته هو بالنص ، يقول :

«إذا كان الأحباش قابلين للتحول إلى حضارتنا «وهو أمر / لا مجال للشك فيه منطقياً» فإن سبيلهم إلى ذلك هو الإقامة بعض الوقت بمصر حيث يجدون عادات وأفكاراً ليست مختلفة تماماً عن عاداتهم وأفكارهم ، فإن ذلك ، إذا صح القول ، تحول إلى نظام الأفكار الأوربية المختلفة إلى حد ما عن طبيعة الأشياء فى داخل الافريقية».

وهذا النص ، وإن حمل - ضمنياً - نزعة عنصرية تجهد أن تخفى نفسها من الجنس الأسود فى جنوب القارة ، فإنه لم يستطع أن يخفى حقيقة اقتراب المصريين من الغرب ، وقابليتهم للتوائم معهم والارتباط بهم أكثر من غيرهم .

وهو ما قال به العديد من الغربيين من طلائع الحملة الفرنسية فى القرون السابقة سواء من الغربيين أو العرب ، وهو يعود إلى تكوين المصرى الذى لا يمكن أن يصف معه صاحبه - تاريخياً - بغير التقدم ويمتد الفهم الفكرى والحضارى للغرب عن الشرق إلى آفاق أخرى كثيرة ، وعلى سبيل الإشارة فقط ، نشير أيضاً إلى ترديد جومار لأكثر من مرة إلى أن النظام الذى كان يتمتع به الشعب المصرى فى ذلك

الوقت هو الاعتدال ، والظواهر الصحية من طبيعة الهواء والماء والغذاء «التى تساعد على إطالة الحياة فى هذا البلد ، الذى يمكننا أن ننظر إليه كبلد صحى جداً بالرغم من الأمراض الفتاكة التى تبتليه باستمرار ..»

وهو ما يستطرد فيه – وحوله كثيراً كتاب وصف مصر ، وبخاصة ، الجزء الحديث ، حيث جاء العلماء ليعاينوا بأنفسهم هذا البلد الأسطورى وهذا الشعب المتخلف ، كما صور لهم ، فإذا بهم ، عبر ما يواجهونه – يكتشفون أن هذه البلاد كانت تتمتع بقدر كبير من الرقى ، لا نغلو فيها كيلا يظهر من يسرف – فى الاتجاه الآخر ، من بيننا – فى تخلفنا .

وبناء على ذلك ، يصبح من المحقق أن ما حاول أن يقوم به العلماء من الفرنسيين فى مصر وأسموه بعد أن عادوا إلى بلادهم (وصف مصر) لا يعدو ، فى الواقع الحقيقى أن يكون هو وصفا لهم ، لذواتهم (وصف فرنسا) إنه (وصف فرنسا) وليس (وصف مصر) بأى حال ◆

إسرائيل وبونابرت .. علاقة خطرة

ما هي العلاقة بين إسرائيل وبونابرت . ؟
سؤال خفي وعلاقات خطرة .
فلنرجئ الخفاء والخطر إلى نهاية هذه السطور .
ولنتمهل أكثر - عند المفاجأة التي نعيش فيها هذه الأيام .

***

المفاجأة جاءت أثناء مرور قرنين من الزمان على مجيء الحملة - فكما هي عادتنا دائماً نجد أنفسنا - فجأة ، أو هكذا نصور لأنفسنا - أننا أمام مرور نصف قرن على نكبة ١٩٤٨ . المناسبتان وقعتا في شهر واحد - مايو - نصف قرن وفي خط متصل يبدأ من الحملة الفرنسية نهاية القرن الثامن عشر ليمر بهذه النكبة قرب منتصف القرن ليصل إلى نهاية القرن العشرين .

يمر علينا الآن نصف قرن على النكبة .

وبين نهاية القرن الثامن عشر ونهاية القرن العشرين - قرنين - نستعيد فيها نكبات أخرى سابقة ولاحقة كثيرة .

ولأن بداية النكبات في العصر الحديث تبدأ بالحملة الفرنسية .

ولأن أعنف النكبات تمر بنكبة فلسطين (قبل أن نصل إلى زلزال الخليج) فإن الأمر يضعنا أمام سؤال هام ، هو :

ما هي طبيعة العلاقة بين بونابرت واليهود ؟

الإجابة تجيء بسرعة ، من طبيعة العلاقة بين المركزية الغربية واليهود وسرعان ما نعيد السؤال ثانية :

هى العلاقة بين المركزية الغربية وإحدى مراكزها فى اللحم العربى هنا .. ؟

وسرعان ما نعيد - ونستعيد - السؤال بشكل أكثر دقة .

ما هى طبيعة العلاقة بين فرنسا - منذ عرفناها بنابليون - وإسرائيل منذ عرفناها باليهود ودورهم السياسى ؟

ويتوازى مع هذا كله ويمتزج به ما يردد الآن كثيراً من أن الحضارة الغربية هى الحضارة المرشحة للبقاء فى العالم الآن (لنتذكر : مقولة هرتزل فى مؤتمر بال حين يصف قوى اليهودية المنتظرة لتلعب هذا الدور الغربى فى المنطقة بأنها «مركز للحضارة أمام البربرية» وترديد مقولة الغرب الحضارى والشرق البربرى فى كل من النكبتين الحملة والنكبة وبينهما ، وترديد مفاهيم جديدة كنهاية التاريخ والحضارة فى الغرب .. إلخ) .

ولأن الدور الفرنسى هو الذى يهمنا (فى هذه المركزية) ، فسوف نتمهل عند بونابرت فى علاقاته باليهود منذ فترة مبكرة .

ولنتمهل عند عدة أمثلة .

***

إن علاقة الغرب باحدى طلائعه اليهودية تلفت النظر لتوحيد التوجه والهدف ويبدو أن فرنسا - قبل الحملة الفرنسية - كانت أول من طرح بشكل جدى هذه العلاقة فى فكرة توطين اليهود فى فلسطين فى الوقت الذى لعب فيه بونابرت دوراً غير مباشر لتأكيد هذا الدور ، وجعل إسرائيل بحق (تلميذة) بونابرت - كما سنرى .

لنتوقف عند الحكومة الفرنسية قبل أن نصل إلى نابليون .

فى هذا يقول أكثر من مصدر أن حكومة الإدارة الفرنسية أعدت عام ١٧٩٨ خطة سرية لإقامة «كومنولث يهودى فى فلسطين» حال نجاح

الحملة الفرنسية فى احتلال مصر والمشرق العربى «بما فيه فلسطين» وذلك مقابل تقديم الممولين اليهود قروضاً مالية للحكومة الفرنسية التي كانت تمر آنذاك فى ضائقة اقتصادية خانقة ، والمساهمة فى تمويل الحملة الفرنسية المتجهة صوب الشرق بقيادة بونابرت .

ولدينا أمثلة كثيرة للدور الذى لعبته الحكومة الفرنسية لصالح اليهود فى هذه الفترة انطلاقاً من الصراع الأوربى ، وطمعاً فى الحصول على مكاسب - خاصة - من بريطانيا التى كانت تحتل مراكز متقدمة ومناطق شاسعة فى الأراضى العثمانية .

***

وحين نصل إلى نابليون نلاحظ تردد عديد من الاتجاهات التى تمعن فى وصف علاقة بونابرت باليهود ، غير أن أكثرها بعداً عن الحقيقة هذه الوثيقة التى قيل أن نابليون كتبها أمام أسوار عكا لاستمالة اليهود بمنحهم وطن قومى

إن ما ينسب لنابليون - فى تعبير بشير السباعى - من تنبيه لمشروع إنشاء الدولة اليهودية أو تأكيد الدور الفرنسى الذى يمكن أن تلعبه فرنسا لإحياء القومية اليهودية ، وهو خطأ وقع فيه الكثيرون (أهمهم عندنا الأستاذ هيكل فى كتابه المفاوضات السرية ، وريجينا الشريف فى كتابها عن الصهيونية ، وأمين عبد الله فى كتابه عن مشاريع الاستيطان اليهودى .. إلخ) .

ومن البدهى أن موقف نابليون لم يكن متعمداً فى تبنيه الدولة اليهودية فى شكل نشر بيان / وثيقة موجهة إلى اليهود إبان فتحه عكا ، وإنما أسهم فى هذا - جهات صهيونية سياسية عديدة - لتضخيم الفكرة التى كانت تروج لها لإنشاء وطن لليهود فى ذلك الوقت ، لا يعنى هذا أن نابليون لم يكن ضالعاً فى هذا الاتجاه ، وإنما الأرجح - كما

سنرى - أنه فعل ذلك بشكل غير مباشر ، فمن المؤكد أن كل ما كان يحرك بونابرت فى فتوحاته فى الغرب أو الشرق هو أنانية لبناء إمبراطورية ضخمة والإفادة من الأقليات فى أى مكان يصل إليه ، وليس بالضرورة - كما قيل أنه تبلور فيما بعد فى بيانه المزعوم أثناء حصاره عكا إلى «تثبيت أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية فى البلاد التى كانوا يعيشون فيها . .» لم يكن نابليون إذن وراء هذا البيان

لكنه كان - بالقطع - وراء الدور غير المباشر الذى قام به لصالح اليهود ، وهذا الدور يمكن أن يكون الريادة فيما قامت به الصهيونية السياسية .

وهو ما سنراه بشكل أكثر وعياً باستعادة صورة بونابرت وظلاله طيلة هذه الفترة .

***

فمن المصادفات الحميدة أنه جاءنى - أثناء كتابة هذه السطور - رسالة بليغة من د . ليلى عنان أستاذة الحضارة الفرنسية بجامعة القاهرة تؤكد على هذا جاء فيها :

. . إن بونابرت هو أول من مهد لإسرائيل طريق استعمار فلسطين ، مهد لليهود الطريق بتخريب سواحل فلسطين وطرد سكانها ، كما نقرأ فى كتاب «هنرى لورانس» عن الحملة الفرنسية فى مصر ، فعندما ، أوقف الجزار باشا زحف الجيش الفرنسى أمام عكا ، وعاد بونابرت مهزوماً إلى مصر ، أمر بتخريب السهول الساحلية وتطبيق سياسة الأرض المحروقة ، مما دفع فلسطين تلك الفترة إلى تركها واللجوء إلى الأراضى المرتفعة ، فجاء اليهود المهاجرين بعد ذلك يزاحمون أهل البلد فى هذه الأرض المنخفضة ، التى كادت أن تخلو من السكان بسبب تخريب بونابرت لها ، ينهى لورانس وصفه لما

حدث بقوله : «مرور بونابرت على فلسطين كان له عواقب فادحة لمستقبل هذا البلد» .

الأمر إذن أخطر بكثير من الوثيقة المزيفة ، فبونابرت كما نقرأ لدى لورانس :

– إذا ما استقر في مصر أراد الزحف على سوريا حيث ينتظره الدروز والموارنة والعرب ومعهم الأكراد والأرمن ، والفرس والتركمان حتى يستولي على القسطنطينية إلى آخر الأحلام التي سيحطمها الجزار باشا بصموده في عكا .

يعود صوت أستاذة الحضارة الفرنسية لتؤكد أن إسرائيل هي (التلميذة) النجيبة لبونابرت ، كيف ؟ تواصل :

«كان نابليون أول من أبدع الحجة الأخلاقية لغزوه بلدً مسالمًا وتحويله إلى مستعمرة لنشر الحضارة الغربية في منطقة قالوا عنها أنها نائية ومتخلفة . فكان التعاطف الأوربي لهم ضد العرب ، ومن أهم أسباب مساعدة الغرب لهم ، ولذا أصبحت إسرائيل مستعمرة تلجأ إلى هذه الحجة الواهية التي ابتدعها بونابرت لتبرير فتوحاته التوسعية» ، نفس الكلام سنراه مكرراً في كتاب (الميموريال) الشهير حيث كان نابليون المنفي يطلق تهويماته في آخر حياته . نلاحظ أن أسماء هذه الشعوب كما كان يقول عنها بونابرت ، لا تحتوي على شعب اسمه اليهود ، لسبب بسيط ، إن عدد هؤلاء اليهود ، في ذلك الزمان والمكان ، لم يكن ليكفي ذكرهم بالمرة ، فلا يستطيع بونابرت أن يعد أناساً لا ذكر لهم ولا وجود ، بإنشاء وطن لهم ، ولكن تخريبه لفلسطين فتح لهم أرضاً لما استطاعوا الاستيلاء عليها دون فعلته الشنعاء تلك» .

وتصل د . ليلى إلى منهج التضليل الإعلامي لإسرائيل كما

استفادت به من نابليون مثلاً فى انشاء الدواوين المحلية ، فهذه الدواوين التى تكرم بإنشائها فى مصر هى التى تبتدعها إسرائيل باسم «الحكم المحلى» فى فلسطين ، كيف ؟ تذكر أستاذة الحضارة الفرنسية خطابات كليبر التى نشرها لورانس أيضاً ، فتضيف :

(هناك البنود التفصيلية لهذه الدواوين ، لا يتحركون إلا بأوامر الضابط الفرنسى ، والاسم «حكم ذاتى» ! فالاسم مضلل ، حكم محلى وشرطة وطنية ، والحقيقة أن هذه الدواوين بصراحة لا هدف لها إلا حماية المستعمر وبأمره ، فهى أولاً وأخيراً ، مسئولة عن النظام والأمن .. هذا النظام وذلك الأمن لا يعنى إلا كبت الثورات ومنع المتمردين من إضرار الفرنسيين .. كما أن الشرطة الفلسطينية تعتبر المسئولة الأول عن سلامة المستوطنين اليهود ، وعليها أن تحافظ ، قبل كل شىء على النظام .. أى نظام ..)

تنتهى رسالة أستاذة الحضارة الفرنسية ولا تنتهى تفاعلاتها فى هذه الفترة .

***

إن ظل نابليون لم يبرح محاولات فرنسا الكثيرة لاستكمال الهيمنة الغربية عبر إسرائيل هكذا بصراحة ودون مواربة ، ودون البحث عن الآفاق المشتركة أو العوامل الحضارية التى يصدعون أدمغتنا بها ليلاً ونهاراً .

لقد شهد القرن التاسع عشر تصاعد الصراع بين الدول الغربية للإفادة من أملاك الدولة العثمانية ، وبوجه خاص فلسطين ويسجل منتصف هذا القرن أو قبله بقليل توالى المركزية الغربية لكسب نفوذ لها فى فلسطين فشهدت الأربعينات من القرن الماضى افتتاح قنصليات غربية كثيرة كان من بينها القنصلية الفرنسية وإن كان الدور البريطانى أكثر تأثيراً .

وهذه هى الفترة التى رددت فيها المصادر أن نابليون الثالث يعلن عن نواياه الاستعمارية لاحتلال منطقة الشرق العربى (وخاصة فلسطين) ويبدى اهتمامه بتوطين اليهود فى فلسطين (وهو اتجاه تردد لدى الشخصيات المحيطة بالإمبراطور الفرنسى)، ويرى د. محمود منسى[*] أنه ظهرت فى فرنسا فى ذلك الوقت اتجاهات فردية لتشجيع اليهود على الهجرة إلى فلسطين «أشيع أن الإمبراطورة أوجينى شملت برعايتها لجنة تكونت فى باريس من أجل تشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين»

وقد ظلت هذه الأصوات تعمل فى هذا الاتجاه، أوجينى زوجة نابليون الثالث، ولاهران سكرتيره الخاص وغيرهما حتى جاءت هزيمة فرنسا أمام ألمانيا ١٨٧٠ مما جعل فرنسا تبتعد عن هذا الاتجاه لأسباب كثيرة.

باختصار، اختفى الدور الفرنسى المؤيد للصهيونية السياسية إلى بداية القرن العشرين حيث ارتبط مصير فرنسا بالعطف على قضية الصهيونية «التى يرتبط نجاحها بنجاح الحلفاء»، غير أن هذا الموقف تغير رويداً رويداً فى الأربعينات، وعلى مراحل، حتى عرفناه بشكل أكثر سفوراً فى أزمة الخليج ٩٠ / ٩١ ومازلنا نراه حتى الآن عبر علاقات خفية وخطرة نحتفى لها ونحتفل بها فلنستعد بعضاً من زخمها الغريب قليلاً.

***

وعبر مناورات كثيرة، ويلاحظ البعض أن الحرب العالمية الثانية كان لها أثرها فى خلق شعور مُوالٍ للصهيونية، ثم جاء قيام دولة إسرائيل فى عام ١٩٤٨، لكى يزيد من هذا الشعور إلى حد ما، بيد أن هذا الدور تصاعد أكثر بداية من الخمسينات ووصل إلى أقصاه - كما قلنا -

(*) محمود حسن صالح منسى، فرنسا وإسرائيل، بدون، ١٩٩٤

في حرب الخليج ٩٠ / ١٩٩١ .

لقد ظهر الدور الفرنسي البشع في ١٩٤٨ فقام بتسليح اليهود ودعم الترسانة الحربية خاصة في الدور الذي كشفت عنه الوثائق أخيراً في عدوان ٥٦ ، إذ منحت فرنسا (جي موليه) لإسرائيل الطائرات الحربية ، وأسهمت في إنشاء وتطوير المفاعل النووي ، وظهرت ثمار هذا التعاون في حرب ١٩٦٧ وإن اتخذ ديجول قراره المتأخر بعدم التعاون مع إسرائيل على أثر اكتشافه بدأها بالحرب .

هذه أحداث تكاد تكون ثابتة في الذاكرة الوطنية للشعب العربي ، الدور الفرنسي إلى جانب إسرائيل ، وهو دور ينتمي إلى المركزية الغربية سواء تسمّت في نهاية الحرب القرن الثامن عشر (بالحملة الفرنسية) ، أو التكريس الفعلي لدولة صهيونية سياسية أو عبر احتلال وويلات شعب الجزائر .. إلخ مما يشير في نهاية السياق إلى هذا الدور المركزي الفرنسي الذي يستبدله الآن بالدور المركزي الأمريكي لظروف العالم الجديد عقب سقوط الحرب الباردة وتولي الولايات المتحدة لقيادة التنظيم العالمي الجديد الذي عرف في نهاية القرن العشرين (بالعولمة) .

***

وما يقال من تعاون قمة الدولة الفرانكفونية (فرنسا) مع قمة الدول العربية (مصر) الآن ليس غير وهم لم يقصد به - إذا أحسنا النية - غير استبدال التاريخ باتفاقات ثقافية بريئة في الظاهر ، في حين أن مثقفين يراوغون فيها من الوجه الحقيقي البشع للغرب الفرنسي بمركزيته الكامنة آثر صعود المركزية الأمريكية ◆

حتى مجىء بونابرت إلى مصر وعودته منها إلى فرنسا ، كان الميثولوجى اليونانى هو النموذج السائد فى الفن ، وهو مع مقته لهذا المذهب كان لا يبدى - منذ البداية - إعراضه عنه ، بل كان القائد الشاب يبدو راعياً للفن ، كما كان - فى مصر قبل ذلك - يبدو مهتما أشد الاهتمام بالإعلام ومخاطبته المصريين وهو ما يلقى فى طاحونة الأسطورة النابليونية وهو فى الوقت نفسه حاول التقليل من الهزائم التى أحيقت به سواء فى مصر أو بعد أن عاد إلى فرنسا على أثر التنديد بالمجازر التى قام بها فى الشرق .

لنترك الإعلام الآن ولنتمهل أكثر عند الفن .

كان اهتمامه بالفن ينطلق فى الأساس الأول إلى تأليه صورته الذاتية واختراع أسطورته وفى الوقت نفسه لإعادة صنع الإمبراطورية الفرنسية التى هى - لدى فنانيه - أكثر أهمية من الحديث المستمر عن إمبراطورية أخرى والتاريخ يحفظ لنا مقولة فنانه الأثير إليه هو ماجرو ، الذى كان مفتوناً بشرق الإمبراطورية رغم أنه لم يذهب إليه ، حين قال فى رسالة إلى والدته :

وليصور الآخرون بطولة الإسكندر المقدونى ، أما أنا فأطمح إلى تصوير إسكندر العصر الحديث بونابرت ، وتلك الملابس الملوكية الرائعة ، وتلك الخيول العربية الرشيقة» .

وجاء فى كتاب (الحملة الفرنسية) نقلاً عن تولار ، غلو عدد كبير من القساوسة فى مقارنته بالرب .

لقد ذهب البعض إلى أن نابليون مثل الرب على الأرض ، وقال إنه واثق أن الرب يأسف أنه قد سبق أن أرسل السيد المسيح لأنه يعرف أن نابليون كان أجدر بأن يكون ابنه .

بينما قال آخر :

«إنه لشرف عظيم للرب أن عبقرية خارقة (مثل عبقرية نابليون) تسبح له».

وهو ما يذكرنا باحتفاء أحد جنرالاته حين استقبله «كقنصل أول» فقال في وضوح شديد :

«خلق الرب بونابرت ثم استراح».

وما قاله ماجرو قاله عدد كبير من فنانى عصر الإمبراطورية ومؤرخو الفن فى عصره حتى وقتنا الراهن دون خلاف فى تأكيد أسطورة نابليون الذى كان يحرص الإمبراطور أكبر الحرص على تأكيدها ، سمعنا هذا من تولارد وجان تولارو هيريو كما عرفنا هذا وقرأناه عند بياتريس كاسبريان وماكسيمليان روبل وردده بشكل ما لدى شاتوبريان .. وغيرهم كثيرين

بيد أن قائمة الفنانين الذين لعبوا دوراً أيديولوجيا أكثر من الدور الميثولوجى أكثر مما يمكن رصده فى فصل كهذا ، كما استمر هذا التصور الأيديولوجى لينتقل من الرحالة والفنانين إلى الأدباء والمؤرخين (وكتاب الحملة الفرنسية للدكتورة ليلى عنان زاخر بهذه الأمثلة) .

ولأن اختراع أسطورة الإمبراطور على حساب المنطق والتاريخ والخلق الفنى هو ما يهمنا فى المقام الأول ، فسوف نكتفى بالتوقف عند الفن لنرى إلى أى حد قام الفن بدوره المسرف فى الغلو ، المتطرف فى صنع الأسطورة تحت رعاية بونابرت الزمنية فى عصره أو - حتى - بعد رحيله .

ورغم أن هذه الأسطورة تعرض لها بالرفض والنقض عدد من المؤرخين الجدد ، فإن تأثير الأسطورة فى تضخيمه صورة الإمبراطورية أكبر مما تتجاهل الإمبراطور فلنتوقف عند هذه الملابسات قبل أن نحدد الموقف أكثر عبر بعض اللوحات .

***

إن دراسة التطور الفنى فى نهاية القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر يرينا كيف استطاع نابليون اختراق الفن وممثليه انطلاقاً من غلبة السياسى على الفنى وسيطرته عليه .

وفى دراسة هامة عن الاستشراق فى الفن الرومانسى الفرنسى (د . زينة بيطار عالم المعرفة ١٥٧ ، الكويت) يتأكد لنا أن الظروف السياسية التى شاءت أن تحول هزيمة بونابرت وفشله فى الشرق إلى «انتصار» سياسى متماثلة تماماً مع الظروف الفنية التى جعلت منه إمبراطوراً ذا سلطة مطلقة فى التشريع الفنى (كما فى التشريع السياسى) مما أدى إلى تصوير حملته الشرقية على أنها أسطورة «انتصار» و«فخار» فى الفن التشكيلى الفرنسى .

وتفصيل هذا أنه حين استلم بونابرت الحكم فى فرنسا كانت الحركة الفنية تعانى من أزمة حادة مردها خيبة الأمل فى تحقيق الأفكار الجمالية والفنية التى نادت بها الثورة البرجوازية الفرنسية .

هذه الثورة التى انطلقت من ضرورة تحرير الفن والفنانين من قيود احتكار السلطة الرئيسية والملكية والإقطاعية وتطوير الذوق الفنى لدى مختلف طبقات الشعب . . كما نادت بديموقراطية الإبداع ، وأخلاقية الفن ، وفى جعل الفن عماداً للدولة وقوة أساسية من قواها الإبداعية ، وضرورة رعاية المؤسسة الحاكمة للفن لا كأداة تزيينية أو أداة للمتعة وإنما رعاية الفن الرسمية يجب أن تتم لازدهاره ولتأثير الفن السياسى

والاجتماعى مما يحتم على الدولة مراقبته .. إلى آخر الأفكار التى دعت إليها الحركة التنويرية فى فرنسا .

فعلى العكس من هذا كله راح بونابرت يُظهر نفسه راعياً للفن وللمواهب الفنية البارزة ومحاولاً تطبيق أفكار عصر التنوير التى هى أفكار الثورة الفرنسية أيضاً على الرغم من أن رسائله ومذكراته وآراء معاصرية كانت تؤكد أن حاكم فرنسا الشاب كان يمقت المذهب السائد الكلاسيكى خاصة . وعبوراً فوق تيارات فكرية كثيرة فقد تحول الفن ليقترب من الأسلوب الوطنى أكثر من الأسلوب الكلاسيكى وأن يكون الفنان مؤرخاً لفن فرنسا ليس لمجد الأقدمين ، وقد اهتبل الإمبراطور هذا التيار الجديد ، فقد تبنى ممثل هذا التيار وهو آمورى ديوفال كبير نقاد الفن الفرنسى آنذاك فقام نابليون بتعيينه سكرتيراً عاماً لوزارة التعليم الشعب فضلاً عن تبنيه لعدد كبير من الفنانين الذين كانوا يقتفون من اتجاه ديوفال من أمثال جيزو وبونس ودى بويسيه وسان جيرمان راميل وفابر وديبوميريبيل وغيرهم من أعلام النقد ، النظرية الفنية الجديدة خاصة أولئك الذين كانوا يتمتعون بصلاحيات واسعة ونفوذ كبير وحاسم فى عهد بونابرت ، ويشير البعض هنا إلى أن نابليون رعى ممثلى هذا التيار وشجعهم كما أحاط نفسه بهم ، وبهذا يكون نابليون قد أمسك بالعصا الفنية المعاصرة من طرفيها ، وهوالذى برع فى لعبة الموازانات السياسية والفنية ، ومن هنا ، فليس من قبيل المصادفة أن يزدهر «الموتيف» الشرقى المستوحى من حملة نابليون الشرقية فى فن التصوير ، وفى النوع الاستشراقى منه بالذات .

ويعود ذلك إلى أن نابليون كشخصية تامة الاستعداد والقدرة فى صنع المجد الذاتى والقومى فى السياسة والثقافة الفرنسيين إبان حكمه ، استطاع «إعادة الأسد إلى عرينه» بعد فترة الفوضى والصراع السياسى

التى شهدتها فرنسا وخاصة الحركة الفنية فيما بين عامى ١٧٨٩ - ١٧٩٩ ، فما كانت الثورة قد حققته من انجازات لتحرير الفن والفنان ، وديموقراطية التعبير ، احتواها بونابرت وجهازه الحاكم (سياساً وثقافياً) وأدخلها برضى فى قوالب وعلاقات وأساليب ديكتاتورية بحتة تمثلت فى عملية «أدلجة» الفن والثقافة وربط الفنان (قدراً وإبداعاً) بعجلة الجهاز السياسى الحاكم.. وباختصار لم يعرف الفن الفرنسى شخصية حازمة كنابليون ركز على فن التصوير للدعاية لذاته ولسياسته لسبب هام وأساسى يتلخص فى قناعة الحاكم الشاب الطامح لبريق المجد بالنتائج السريعة لوظيفة الفن فى خدمة سياسته وأيديولوجيته والمنطلقة من مفهوم عملى بحت هو عجز فنَى العمارة والنحت عن المواكبة السريعة للأحداث السياسية والتاريخية التى كانت تفرزها المرحلة .

وقد شهدت هذه الفترة عدة فنون أسهم فيها كبار الفنانين فى عصر نابليون لتخلد حملته الشرقية وشارك فيها فى فترة مبكرة فنانون معروفون وأشرف فى المرحلة الأخيرة عليها نابليون وفيفان دينون كما صنعت بعض الميداليات التذكارية التى خلدت بونابرت فى حملته على مصر وقتها (عجلة النصر التى تجرها الجمال) .

وعلى هذا ، زخرت هذه الفترة بهذه الفنون التى تؤكد ولع نابليون بالأعمال التى تصور المعارك التى خاضها بالطريقة التى يراها هو ، «فبمجرد ما كان يرى صورته تزين خلفيتها الأهرامات رمز الخلود والأبدية كان ينتابه إحساس وهمى بالانتصار»

لذلك نرى أنه فى عهد نابليون - كما يشير البعض - قد حول فن التصوير إلى مرآة عاكسة للواقع السياسى والأيديولوجى الذى فرض عليه مفهوم «السياسة والفن من فوق» وربط الإبداع بعجلة السياسة أو بعجلة السلطة السياسية .

وعلى هذا سعى بونابرت الفرنسى ليحل محل الأبطال اليونانيين . الأكثر من هذا أن نابليون تدخل فى شكل مباشر فى طرق الرسم أو التشكيل الفنى لهذه اللوحة أو تلك .

ونستطيع أن نجد فى الصالون الذى افتتح عام ١٧٩٩ سلسلة لا متناهية من اللوحات المكرسة لتمجيد شخصية بونابرت وعائلته وحروبه وقادته وجنوده ، كما تكرر هذا فى هذه الصالونات التى شهدتها باريس فى العقد الأول من القرن التاسع عشر بباريس .

ويقول التاريخ الفنى إن الإمبراطور كان يحدد بنفسه أسماء المعارك وموضوع اللوحة ويطلب من وزير داخليته ورئيس إدارة المتحف اختيار الفنانين بل ويشرف على تنفيذ الفكرة ثم يحدد هو طريقة عرضها والوقت المتاح لذلك ، وكثيراً ما كان يرى وهو يفتتح المعارض الفنية الأكثر من هذا أنه كان معروفاً عنه أنه يغدق على فنانه المفضل جان جرو رعايته وحبه .

«لأن هذا الفنان استطاع طوال فترة حكم بونابرت أن يلبى كل ما يطلب منه بدقة ووفقاً للمعايير الأيديولوجية والسياسية والفنية الإمبراطورية» .

وسوف نكتفى بهذا القدر من سيطرة الإمبراطور على الخلق الفنى ونتمهل عند أهم اللوحات التى رسمت فى هذا الصدد .

***

ولكثرة اللوحات والأمثلة الصارخة فى هذا الصدد ، سوف نتمهل عند بعضها مما يرتبط بوجود بونابرت فى مصر ، أو ما يرتبط بذلك ، مشيرين منذ البداية إلى عدة ملاحظات هامة :

أولاً : إنها جميعاً تلقى فى طاحونة الأسطورة ، وهو ما يرتبط بأسطورته هو ، وبسيطرة كاملة منه .

ثانياً : إن اللوحات التى رسمت عن بونابرت فى مصر كانت لفنانين لم يأتوا إلى مصر ، ومع ذلك ، فإنهم أكثر مما رسم عن مصر .

ثالثاً : إن اللوحات التى سنشير إليها سوف نرفقها فى الملحق لتكون شاهد عيان على طبيعة هذه الفترة ودلالتها فلنتمهل عند بعض هذه الأمثلة .

إننا أمام لوحة «بونابرت يزور مرضى الطاعون فى يافا» (نلاحظ أنها رسمت عام ١٨٠٤) أى بعد ان عاد بونابرت إلى فرنسا بفترة طويلة . وقد رسمت تحت إمرة نابليون نفسه وتحت عنايته وتوجيهاته ، وقد كانت تنصرف - فى الأصل - إلى تأكيد أسطورته فى الشرق ، خاصة ، أن هذه الفترة التى رسمت فيها كانت تشهد محاولات ضده لتشويه صورته للمجازر التى ارتكبها فى الشام .

واللوحة فى مجملها العام - وإن كانت تنفى وحشية الإمبراطور فى الشرق - فإنها تمثله كالمسيح فى حركته مما يقرن بينه وبين المسيح (انظر كيف يشفى المسيح الأبرص ، إنجيل مرقص ، الإصحاح الأول ٤٠ - ٤٢) ، كما أن أهمية اللوحة تعود إلى أنها اعتبرت من رواد الفن (البيان الأول الاستشراقى) كما يذهب البعض (انظر على سبيل المثال BOEE MP. BARON AND NAPOLION PARIS 1946)

نحن أمام لوحة أخرى عن ثورة القاهرة فى ٢١ أكتوبر ١٧٩٨[*]

فى هذه اللوحة نجد الفرنسيين المحاربين فيها شباب ووسامة وشجاعة رزينة - وأنا هنا أستخدم ألفاظ د . ليلى - بينما الثوار المصريين من الزنوج - هكذا - عرايا تماماً والشرر يتطاير من عيونهم، وكأنهم وحوش معتدون على الجند الفرنسيين المتحضرين فى لبسهم وسماتهم الرصينة .

(*) انظر ندوة د . ليلى عنان بقسم اللغة الفرنسية بآداب القاهرة بين ٢٣ - ٢٦ مارس ١٩٩٨) .

أما المملوك الأبيض الوجه ، فإن ملابسه فاخرة ، يسقط في غيبوبة ، يسنده أحد هؤلاء العبيد حتى لا يقع على الأرض .

وهى لوحة تظهر - على العكس مما هو معروف - بطولة الجيش الفرنسى فى وقت لا نجد أثراً للمقاومة المصرية التى أبلت بلاء حسناً فى ثورة القاهرة الأولى ، وهو ما يعترف به أكثر من فرنسى شهد هذه الثورة وشارك فيها ، وهو ما تأكده مراسلات عديد من الجنود لذويهم في فرنسا .. ؟

لدينا لوحة أخرى بعنوان (بونابرت فى الجامع الكبير) ويقصد به جامع الأزهر . وبونابرت ينزل - كما نرى فى اللوحة - من أعلى اللوحة ، وكأنه ينزل مع النور من السماء الزرقاء من خلفه، على جواده الأبيض ، ومن تحته درجات لم نعرفها فى يوم ما فى الأزهر .

وكأن بونابرت هنا ملاك يجلب النور إلى ظلمات المسجد .

وكأن المهزومين يسجدون له فى ظلمات المسجد من تحته .

فى حين نجد امرأة عارية - فى الجامع ! - تتوسل إلى السماء .

والمنظر العام يرينا أن هناك من يحارب الصليبيين قبل الحملة بخمسة قرون !

فى حين أن التاريخ يذكر لنا أن الفرنسيين الغازين هم الذين دخلوا الأزهر بجيادهم ، وأن بونابرت لم تطأ قدماه يوماً أى جامع .

إن اللوحة تبدو فى شكل نورانى ، توحى بأن الحضارة الفرنسية التى جاءت مع نابليون هى التى تعمد إلى تأكيدها داخل الجامع القديم .

وكأن الرجل الأبيض يجىء هذه المرة ليحمل عبء هذه الحضارة من أجل البرابرة (وهذا اللفظ تكرر كثيراً فى الكتابات الفرنسية المعاصرة للحملة) .

نحن أمام اللوحة التالية التى تصور - فى المنظور العام - (بونابرت

يمنح سيفاً لحاكم الإسكندرية العسكرى) .

والصورة على ظلالها الموحية تشير إلى أكثر من دلالة فنحن أمام الفرنسيين الشامخين وهو ما يشير إلى انبهارهم - فضلاً عن الإذلال - بهذا الفارس الفرنسى المتحضر الذى يمنح هذا الكرم لرجل أدنى بكثير منه - وبالتبعية - أدنى من حضارته كما أن التاريخ نصب مثل هذا الحاكم العسكرى من داخل البلاد .

فضلاً عن أن التاريخ يذكر أيضاً ، أن نابليون لم يقدم يوماً على أن ينصب حاكماً عسكرياً (مصرياً) لمثل هذا المنصب .

وعلى العكس من ذلك ، فإن التاريخ يذكر أن نابليون حين استطاع القبض على محمد كريم المسئول المدنى للإسكندرية ، وقد كان مصرياً ، حرص على أن يمارس العنف معه ، وحبسه ، وراح يعلن أنه لن يخرج من محبسه إلا بمبلغ ضخم ، حدده هو .

ولما رفض محمد كريم دفع المبلغ ، وحرض المصريين على ألا يدفعوا للغازى لم يتردد بونابرت عن التعامل معه بهمجية لا تعرفها هذه الحضارة - بالفعل - أمام المصريين . أضف إلى ذلك أن المدقق فى هذه اللوحة - كما لاحظ عدد من نقاد الفن - يرى أن المشهد العام فى كنيسة وليس فى جامع ، كما أن الشهود ليسوا مسلمين أمام طغاة ، إنه تجسيد لخيالات جاء بها فنان لم يزر مصر فى حياته وقد كان هدفه الأول هو تأكيد أسطورة الإمبراطور وألوهيته .

من أبلغ آيات الزيف هذه اللوحة التى يظهر فيها (بونابرت وهو يهدى وشاح الجمهورية ذا الألوان الثلاثة لأحد بكوات مصر) - وهو اسم اللوحة - وحين نعود إلى أصل الحكاية نعلم - كما سبق أن أشرنا ، وهو ما جاء فى (عجائب الآثار) للجبرتى - نعلم أنه حين حاول وضع هذا الوشاح وتعليقه بصدر الشيخ الشرقاوى ، فإن هذا الشيخ غضب

و(امتقع) لونه وألقى به أرضاً رافضاً هذه التبعية المهينة .

وحين أصر بونابرت أن يرتديه قدم الشيخ الشرقاوى استقالته على الفور وانضم إليه على الفور باقى المشايخ الذين كون منهم بونابرت (الديوان) فيما بعد .

وغنى عن الذكر أن فكرة الديوان فى حد ذاتها كانت لمحاولة السيطرة على هؤلاء المشايخ ، ومن ثم ، السيطرة من خلالهم على الجموع الشعبية غير أننا فى اللوحة نجد شيئاً آخر ، نجد نابليون يضع باعتزاز وشاح الثورة الفرنسية على صدر الشيخ ، فى حين الشيخ يبدى ارتياحا يبلغ درجة السيادة الكاملة فى حين لا يخفى عليه الإحساس بمشاعر (الجندى المهزوم)

إن الشيخ الشرقاوى (الذى يظهر بمظهر «البك») نجده فى اللوحة يقف بإذلال شديد وهو يتلقى هذه الهدية الثمينة التى تعنى الطواعية الكاملة والخضوع الكامل لبونابرت ممثل الثورة الفرنسية . وهو الزيف بعينه .

وببساطة – كما تزيف اللوحة – فإن الشيخ يعترف بجميل المحتل عليه وعلى مصر كلها ، إن العنصرية الفرنسية فى الصورة هى التى تريد أن تقول أنها العنصر الرئيسى فى هذا المشهد ، فى حين ان قائد المهزومين المتخلفين هو الطرف الآخر .

العنصرية الغربية أبت إلا أن يصبح الفن حتى الفن فى خدمة الإمبراطور ◆

المقاومة .. وحضارة الغرب

قبل ٢٠٠ عام - ٢ يوليو ١٧٨٩ - وطئت أقدام نابليون وجنوده شاطئ العجمى بالإسكندرية ومنذ هذا التاريخ عرفت شعوبنا العربية صوراً عديدة من المقاومة سواء أمام وحشية بونابرت فى نهاية القرن الثامن عشر أو عنجهية نتنياهو فى نهاية القرن العشرين . وما بين الطاغيتين : بونابرت ونيتنياهو أعمل السونكى فى الشعوب العربية العزلاء، وقبل أن نستطرد أكثر حول قيمة المقاومة ثمة ملاحظة بدهية نؤثر التمهل عندها لأهميتها .

وهذه الملاحظة تتحدد فى توصيف موقفنا من مناهضة الفرنسيس وهو موقف أسىء فهمه تماماً لا بفعل الوعى التاريخى الذى يجب أن يتحلى به المثقف المعاصر ، وإنما لانحراف فى هذا التفكير لدى عدد كبير من مؤيدى الحملة وهذه (الآفاق المشتركة) التى أعلن عنها كثيراً ، وهو انحراف ناتج عن سوء الفهم أو الجمود الذى اتصف به الكثير ممن تبوأوا مكاناً مرموقاً فى حياتنا الثقافية ، وأصبحوا يُحسبون علينا - لا لنا - بفعل الفترة الزمنية و«البروباجندا» التى استثمروها لفترة من الفترات ، كما ينضم إليهم العديد ممن يحسبون على السلطة الثقافية الرسمية أو ممن استطاعت الدعوات الخاصة استقطابهم إلى المعاهد أو المتاحف الفرنسية . .

فلنتمهل قليلاً قبل أن نرى صور المقاومة ضد حد السيف .

أصل الحكاية :

وبادئ ذى بدء فإن مفهوم المقاومة عندنا يختلف عن مفهومه عندهم وهو يتخذ أشكالاً كثيرة ويتسمى بمسميات أكثر وهو تتداخل فيه عوامل الحسابات الشخصية والمواقف المتجمدة والعنجهية الفكرية وربما (الخرف) الذى يصاب به عديد من كبار السن ، حتى ليقترب مما هو معروف (بالزهايمر) حيث تؤكد خبرات علم النفس اليوم أن هذا الداء الذى يصاب به صاحبه يدفع به إلى نسيان الكثير ، أو الخلط بين الأمور أو استبدال الذاكرة المكتوبة بأخرى غير واضحة ... إلخ ولنتمهل عند مثال واحد له .

إن بعض هؤلاء يرون أنهم - فقط - المتحضرون أما سواهم فهم أصحاب العقول المتجمدة والأورق الصفراء(*)

إنهم يلتفون حولهم فيرون أن مخالفيهم ينتمون إلى التيار الإسلامى، وهو تيار ينظر كما يرددون بالحرف الواحد : « .. إلى عملية الاحتكاك الثقافى مع فرنسا نتيجة للحملة الفرنسية على أنها كارثة الكوارث / ذلك لأن أقصى أمانى هذا التيار هو إغلاق كل النوافذ والأبواب فى المجتمع الذى يسعى إلى السيطرة عليه .. إلخ» .

وعلى هذا أصبح من يقاوم ذكرى الغزو أو يتحدث عن جدوى الاحتفالية أو المجازر التى ارتكبت ضد أهالينا من أصحاب هذا التيار .

(وهى كلها صور من العنف تكررت كثيراً منذ عرف الغرب الشرق..) خطأ لا يغتفر قط ، ومن الطبيعى أن يروا فى غرور مطلق (لا أعرف من أين استمدوه ؟) إن التيار المقاوم لعنف الغرب وعنصريته وعنجهيته ليس غير خطأ نقع فيه ، ومن ثم يصبح هذا التيار يرى فى بداية اتصال المجتمع المصرى بالعلم والديمقراطية والاستنارة مصيبة

(*) انظر على سبيل المثال المصور ٢٩ مايو ١٩٩٨)

تستحق إقامة مأتم لا إجراء احتفالات» .

ومعنى هذا أن أصحاب هذا التيار المتفلسف ضد المقاومة لا يرى إلا نفسه هو صاحب التفتح الفكرى والتفاعل الثقافى .. إلخ ، ويرون غيرهم من المتخلفين الذين يرون - والحال هكذا - فى النشرات الصفراء زاد الآخرين .

وبهذا راحوا يصنفون أنفسهم بالمتحررين المتأثرين بالحضارة ، ويصفون غيرهم بالمتخلفين المتأثرين بتيار الإسلام السياسى الذى يرفض التحاور مع الحضارة التى تقبع فى الشمال ..

إن هؤلاء ينسون أننا لا ننتمى بالضرورة إلى الإسلام السياسى بالمعنى الذين يصورونه ، وإنما إلى هذا التيار الإسلامى المستنير (الذى أصبح جزءاً من هويتنا الحضارية) والذى يعى الفارق واضحاً بين الحضارة والاستعمار ونعى جيداً أن الغرب ليس وجهاً لنسيج حضارى واحد متجانس، وإنما هو متعدد الألوان ، أكثر الخيوط لفتاً للنظر فيه هى التى تصنع نسيج الهيمنة والعولمة التى نعيش فيها الآن .

إنهم ينسون أن الحضارة الغربية فى نهاية القرن العشرين هى الحضارة التى يريد أصحابها أن يصورها لنا على أنها الحضارة الباقية (ونظرة واحدة إلى فلاسفتهم وموظفى وزارت المخابرات فى مؤسساتهم تؤكد هذا : انظر على سبيل المثال صمويل هننتنجون «صراع الحضارات» وفرنسيس فوكوياما فى «نهاية التاريخ» وتوفلر فى «الموجة الثالثة» و ...) .

نحن ننتمى إلى الإسلام المستنير الذى يرفض من الآخر الغربى سواء كان فرنسياً أو إنجليزياً أو أمريكياً - فى عصر العولمة - هذا الغرب المتسلط الذى لا يرى فى الحضارة الغربية غير الحضارة الوحيدة فى هذا الكون ، وفى الاستعمار الشكل الوحيد لتأكيد العناصر الحضارية ضد

البربر أو الهنود الحمر أو السمر كما يريدون أن يرونا . فنحن فى وضوح لسنا ضد الحضارة ولكن ضد الاستعمار ، وبشكل أدق ، نحن ضد الحضارة حين لا تخلو من بواعث الاستعمار ، وضد الاستعمار حين يتوسل بالحضارة .

نحن فى الشرق - بجميع طوائفنا - لسنا ضد الحضارة الغربية أو التكنولوجيا أو الآلات الذكية أو الإلكترونيات المتقدمة ، لأن هذا كله يمثل - ببساطة - المعرفة ، والمعرفة تمثل ببساطة أكثر القوة ، والقوة تمثل - ببساطة أكثر وأكثر ما يميز أدياننا التى تدعو إلى ما يصون الكرامة ويحفظ الكبرياء .

نعتذر عن الإطالة ونعود إلى المقاومة عبر عدة أمثلة :

ولأن المقاومة تتخذ صورها أمام عشرات الأمثلة العنيفة ضدنا ، فسوف نكتفى الآن بعدة أمثلة وقد نواصل - فى موضع آخر - أمثلة أخرى .

تعددت صور المقاومة التى نجدها فى عديد من المصادر والمراجع الهامة ، سواء فى عصر بونابرت أو فى عصرنا الآن ، ومن ذلك ، نستطيع أن نشير إلى مراجعة كتابى الجبرتى المهمَين فى هذا (عجائب الآثار) و (مظهر التقديس) رغم إعجابه أحياناً برجال الحملة - وما خلفه نقولا الترك (ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار العربية والشامية) رغم عدم حيدته الكاملة .. وإلى عديد من الكتب فى عصرنا ربما كان فى مقدمتها كتب عبد الرحمن الرافعى (الجزء الأول من تاريخ الحركة القومية) ود . ليلى عنان (الجزء الأول من كتاب تاريخ الحركة القومية) وكتاب محمود الشرقاوى (الجبرتى وكفاح الشعب) ولا نستطيع أن نغفل كتاب لويس عوض حول تاريخ الفكر المصرى) وكتاب د . زينب عبد العزيز (..حملة المنافقين الفرنسيين) .. وغيرهم .

هذه صور من الكتب التى سجلت مواقف الشعب المصرى المقاوم ورصدته بحيدة كانت المقاومة الشعبية لا تهدأ أبداً إزاء الوحشية التى تعامل بها المحتل مع أهالينا العزل ، وسوف نضرب أمثلة ، أحدها حدث بمدينة مصرية ، استخدم فيها الفرنسيس العنف بأعلى صوره ، فأحد ضباط شهود العيان من هؤلاء يقول مرة :

« – حين دحر المدافعون على جميع الجوانب واحتموا بإلههم ورسولهم فملأوا الجوامع ، ذبح الرجال والنساء والكبار والصغار ، وحتى الأطفال عن بكرة أبيهم . وبعد نحو أربع ساعات هدأت ثورة جنودنا فى النهاية» .

وفى مرة أخرى يقول أحد الضباط الفرنسيين أيضا مصورا المشهد كله حين تصبح مقاومة المواطن الأعزل فى مواجهة السونكى ، نقرأ من خطاب ضابط آخر هذه العبارة :

«ظننا أن المدينة استسلمت وأشد ما أدهشنا أن ينهال علينا رصاص البنادق ونحن نمر أمام أحد المساجد . . فأمرنا قائد اتفق وجوده هناك أن نقتحم باب المسجد ولا نبقى على أحد فيه وهكذا هلك الرجال والنساء والأطفال بحد السونكى» .

هل لاحظنا تكرار اقتحام الأبواب الموصدة ؟

وهل لاحظنا قتل الرجال العزل والنساء بل – أيضاً – الأطفال الأبرياء ؟

وهل لاحظنا أن القتال استمر – من جانب المتحضر الغربى – بحد السونكى ؟

بل إن الأمر تطور أكثر من السونكى إلى السيف – ونلاحظ أن السلاح النارى فى الغرب كانت له الأولية الآن – وتفصيل هذا فى تلك العبارة التى يقول فيها آخر من أنه حين رفضت قرية إمداد الفرنسيين

بالبضائع التي طلبوها فماذا حدث ، نقرأ فيها :

«فضرب أهلها بحد السيف» .

بل يضيف الجندى فرانسوا إلى أهله في أحد الرسائل هذه العبارة البشعة :

«وأحرقت بالنار وذبح وأحرق ٩٠٠ رجل وامرأة وطفل ليكونوا عبرة لشعب همجى نصف متوحش» .

وهو ما يدعونا إلى السؤال :

من هو الهمجي المتوحش حقاً ؟

نترك السؤال إلى مثال آخر ، يستخدم فيه نفس الأداة السونكى . .

تتردد الأمثلة الكثيرة في فترات محاولة السيطرة على قرى مصر ومدنها ، فنعرف - على سبيل الأمثلة التى لا تنتهى - أن الفرنسيس قتلوا من المقاومين المصريين فى مدينة واحدة كدمنهور نحو ٢٠٠ كما يقول الجنود «قتلا أو حرقاً» .

ويضيف سكرتير نابليون مرة أخرى أنه كان يساق المسجونون إلى القلعة :

«وكنت أتولى فى مساء كل يوم كتابة الأوامر القاضية بإعدام اثنى عشر سجيناً كل ليلة ، وكانت جثث القتلى توضع فى زكائب وتغرق فى النيل ، واستمر ذلك ليال عديدة ومنهم كثير من النساء ممن نفذ فيهن أحكام الإعدام الليلة» .

وتستطرد روايات الجنود إلى أهاليهم فنقرأ قتل وحرق واغتيال المئات كل ليلة . ولأن المقاومة مستمرة ، فإن السونكى يستمر ، ووراءه السيف والحرق والغرق والاغتصاب وكل طرق القتل غيلة التى عرفتها البشرية بأوامر القائد بونابرت شخصياً أو نوابه ، ويعلم دارس التاريخ ، كيف خدع بونابرت الإمبراطور الفنان - كما عرفنا - ليرسم

لوحة يؤكد فيها رحمته بالأسرى ، واقترابه منهم حين فتك بهم مرض الطاعون ، فالتاريخ يقول - وهذا مثال آخر لا أخير - نقرأه فى أحد رسائل الجندى بيروس إلى أمه ، وفيها يؤكد ، كيف اغتيل الجند العربى بعد أن استسلم وبعد أن وعد ٣٠٠٠ بالعفو التام ، فألقوا سلاحهم وسيقوا حين اقتيد عدد هائل منهم إلى الشاطئ وقتلوا رمياً بالرصاص وكان قد تم تجويعهم قبل ذلك ، متشبثين بأمل الحياة ولكن سرعان ما خاب رجاؤهم ويكمل المواطن الفرنسى - بالحرف الواحد :

«.. وصدرت التعليمات للجنود بألا يسرفوا بالذخيرة فبلغت بهم الوحشية أن أعملوا فيهم الطعن بالسونكى» .

السونكى مرة أخرى نقرأه فى أوراق الحملة ، وفى موضع السونكى نقرأ هذه العبارة القاسية لنفس المواطن :

«وقد وجدنا بين الضحايا أطفالاً كثيرين تشبثوا وهم يموتون بآبائهم»

هذه بعض صور المقاومة ، والصور الدامية أكثر للسونكى ضدها ، كيف كان يواجه من يجرؤ على أن يدافع عن نفسه ، والصورتان واضحتان : هذا بطل مصرى شرقى والآخر جندى فرنسى غربى ، إنها الحضارة الغربية المتوحشة فى نهاية القرن الثامن عشر وهى هى الحضارة التى تتغير مسمياتها بين صهيونى أو صربى أو أمريكى فى نهاية القرن العشرين .

إنهم جنود الحضارة الغربية على أية حال !

إنها حضارة الغرب !! ◆

آفاق غير مشتركة .. وكلمة أخيرة

إلى السادة الذين مازالوا يتحدثون عن الآفاق المشتركة . .
نوجه إليهم هذه الصورة الأخيرة
إلى السادة الذين مازالوا يتحدثوا عن الآفاق المشتركة بحرارة شديدة .

ناسين أو متناسين (سيان) مجازر الحملة وخسائرنا المادية والمعنوية .
إلى السادة الذين يتحدثون عن حضارة الغرب .
وكأننا خارجون عن إطاره حين نطالب بإعادة النظر فيما يطالبوننا به من إعادة الثقة الكاملة في العدو التاريخي ممثلاً في هذا الغزو ، الذى مازال يردد في فرنسا نفسها حتى كتابة هذه السطور الغزو CONQUE

إلى السادة الذين مازالوا يتحدثون عن الإسلاميين وأوراقهم الصفراء وانغلاقهم الفكرى كلما تحدثنا عن حضارة السونكي والخازوق وجنود الفرنسيس الذين حولوا المدن المصرية في نهاية القرن الثامن عشر إلى (الأحجار السوداء) بتعبير أحد هؤلاء كما جاء في كثير من مصادر هذه الفترة .

إلى هؤلاء وغيرهم ، نقدم لهم صورة من هذه الآفاق الذين يريدوننا بعنف ألا نلتفت إليها الآن في حين أنهم يلحون في العودة إليها كلما عدنا إلى عصر الفرنسيس في مصر نهاية القرن الثامن عشر .
وكى لا نطيل حول هذه الآفاق الذين يدعونا إليها الفرنسيس الغربيون أو الفرنسيون العرب ، سوف نشير إلى هذه الصورة المعاصرة ، والتى يأتى الدافع لإثارتها أنها كانت آخر هذه الصور التى عرفناها .

وسوف نجهد أنفسنا فى عرض هذه الصور الدامية من وجداننا .

لقد عرفنا منذ الحملة الفرنسية حتى اليوم عديداً من هذه الصور التى تدمى سواء فى مصر أو فى الجزائر أو المغرب أو أمام قبر صلاح الدين فى بداية هذا القرن وصولاً إلى ما حدث فى أزمة الخليج وصحراء النقب (حين أنشأ بدايات النوويات الإسرائيلية فى الصحراء الصهيونية ؟)

عرفنا إلى كثير منها حين راحت تنحصر هيمنة الاستعمار الثقافى والعسكرى من أقنعة الفرنسيس فراحوا يحاربون بسلاح الثقافة ، فيمنحون الجوائز لعرب المغرب الذين يكتبون بالفرنسية ، أو لبنان ، أو يمنحون الكلمات والمؤسسات الثقافية الفرنسية للمارون أو يوزعون مراكزهم العلمية والثقافية وجامعاتهم الفرنسية فى شتى أنحاء المعمورة (والعربية فى مقدمتها) .

ثم عرفنا الكثير من ملامح الفرانكفونية التى يريدون أن نعتنقها وندافع عنها ونترأس هيئتها باختيار د . بطرس غالى ، ثم كان أن عرفنا وجه (العلاقات المشتركة) التى دعينا إليها فى مصر منذ أن جاء الرئيس ميتران (بالمناسبة فإن أكبر شوارع العاصمة يحمل اسم شارل ديجول منذ هذه الزيارة) ، ودعينا للاشتراك فى سعى الفرنسيين لتعميم ثقافتهم ولغتهم خاصة فى مصر ، ثم كان هذا الاتفاق الذى راح عدد كبير من مثقفينا يتحدث عنه بغير حياء (بينما لا يفعلون هم هناك فى متحف اللوفر أو معهد العالم العربية و . . بنفس اللغة) .

ومنذ هذا الوقت حتى الآن ، لا تنقطع الإشارة والإشادة بالثقافة الفرنسية ، رغم أن الرئيس مبارك كان أكثر وعياً من هؤلاء جميعاً ، ففى زيارته إلى فرنسا أو زيارة نظيره الفرنسى إلى مصر بعد ذلك لم يذكر شيئاً ما عن هذه الحملة : الغزو أو الحضارة .

أطلت مرة أخرى ، لأ توقف عند هذه الصورة الأخيرة التى قدمها لنا (المنافقون الفرنسيس) - على حد تعبير د . زينب عبد العزيز فى كتابها الأخير(*) الذى حمل نفس الاسم لنصل إلى هذه الصورة ..

الصورة تنقلها لنا وكالات الأنباء ، إحداها أمريكية ASSOCIA-TEDB PRESE والأخرى فرنسية AGENCE FRANCE PRESS وكلاهما - الأمريكية أو الفرنسية - تنقل لنا كيف احتفلت فرنسا مع إحدى عشرة دولة غربية أخرى بالذكرى الخمسين لإقامة دولة إسرائيل فى إطار الاحتفالات التى تمت فى إسرائيل - كما تقول وكالات الأنباء .

لقد شارك فى هذا الاحتفال - بعد وقت قصير كان الرئيس مبارك يشهد احتفالات اللوفر بالحضارة الفرعونية - الطائرات الفرنسية ضمن طائرات غربية أخرى (الإيطالية والبريطانية والتركية والأمريكية والسويسرية والأوكرانية والتشيلية والأسبانية ..) ، فلهذه الذكرى التى شارك فى صنعها الفرنسيون أنفسهم (وعودوا إلى التاريخ) قامت عدد من الطائرات الفرنسية الحديثة من طراز (الفاجيت) كما تقول الوكالات العالمية لتجرى الطلعات الجوية وترسم ألوان العلم الفرنسى فى سماء فلسطين المحتلة وفى اليوم التالى ، تم نفس الاستعراض من الطائرات الفرنسية - وباحتفاء تغير شكله وإن لم يتغير مضمونه - فوق تل أبيب .

كما شارك الفرنسيون بأشكال أخرى فى هذه الاحتفالات ، وهو ما جعل الصحف اللبنانية تصدر فى الأيام التالية وهى تتحدث بحزن شديد عن هذه الدولة الصديقة - فرنسا - التى احتفلت ليس بالذكرى الإسرائيلية لاحتلال الأرض العربية فقط ، وإنما فى وجود قوات استعمارية أخرى على الأرض اللبنانية والسورية ، وكلنا نعلم القدر

(*) صدر فى صيف ١٩٩٨

الذى تبديه فرنسا من الصداقة والحفاوة للبنانيين ومارونيها .

ونحن نعلم - أيضاً - أن قدراً كبيراً من المنشآت النووية والطائرات المختلفة - من أشهرها الميراج - زودت بها إسرائيل وأسهمت فى ضرب الدول العربية إبان ١٩٦٧ وإن يكن - كما نعلم - بإيعاز مسبق من الفرنسيين التى أثبتت الوثائق الفرنسية التى كشف عنها بعد ثلاثين عاماً من العدوان الثلاثى على مصر أن فرنسا قامت - بطلب من قادة إسرائيل - بتزويد الإسرائيلين بشبكات ضخمة من الحماية الجوية لإسرائيل لحمايتها إبان العدوان على مصر .

نعلم هذا كله ولا ننكره .

ونعلم أنه حتى فى حالة هذه الصورة التى نعرضها يتبقى الرمز أقوى من الموقف .

الرمز لما يحدث أقوى من الموقف الذى حدث .

نعلم هذا كله

ولكننا لا نعلم (وقد يكون لقصور فى فهمنا) أن الفرنسيين مازالوا يلعبون الدور الأكبر - بعد الولايات المتحدة الأمريكية - لتسليح إسرائيل وتأييدها والاحتفال معها بأعيادها كما حدث فى هذا الاحتفال الأخير . نقول هذا - عن تأن وإصرار - من اقتناع مؤداه هذه الظواهر التى نرى فيها من الجانب الفرنسى إشادة بالعلاقات المصرية الفرنسية فى ذكرى (الغزو) النابليونى فى مصر ، والتى نرى فيها من الجانب المصرى إشادة بهذه الآفاق المشتركة (مازالت مشتركة) بيننا وبين الفرنسيين .

والآن ، ثانية ، إلى السادة الذين مازالوا يتحدثون عن الآثار المشتركة نوجه إليهم كلمة أخيرة ننهى بها هذه السطور ..

أن يتنبهوا إلى أن الآفاق التى بيننا وبين الفرنسيس ليست مشتركة

، ولم تكن فى يوم ما مشتركة رغم أثر الثقافة الفرنسية فى التكوين العربى المعاصر .

بيد أن صورة الكلمة تأتى بشكل أكثر تعبيراً فى نهاية كتاب د . زينب عبد العزيز

وهذا يتحدد فى عدة مطالب .

والمطالب ننقلها - عن أستاذة الحضارة .

فلم يعد ليخدعنا ما قيل وما يقال من أن علماء الحملة الفرنسية - على سبيل المثال - جاءوا لتنويرنا .

كما لم يعد يخدعنا هذه الترهات عن حضارة الغرب التى جاءت - وليس استعمارهم فى مناخ شتى . . إلخ

إن المصادر الفرنسية نفسها تؤكد فى عديد من الكتابات أن الهدف الصريح للحملة كان لمساعدة الجيش ووضع العلم فى خدمة الحرب والحكومة الفرنسية ، والعمل على تنظيم وإدارة البلد الذى تم استعماره (وذلك وفقاً لقرار نابليون الخاص بإنشاء المعهد المصرى فى ٥ فروكتيدور (٢٢ أغسطس ١٧٩٨)

ومن هنا ، نكتب فنقول :

وإنه بدلاً من الشعارات البراقة التى تتشدق بها فرنسا لإغراقنا فى ضياع جديد ، فليقم علماؤها ومؤرخوها بحصر آلاف القتلى المصريين والفلسطينيين والأتراك الذين حصدهم رجال الحملة ، وليحصوا عدد المدن والقرى والآثار الإسلامية التى هدموها وأحرقوها ، وليحصوا عدد الآثار المصرية والقبطية والإسلامية وكل المخطوطات والنفائس التى نهبوها وأثروا بها متاحفهم ومكتباتهم وليحسبوا المبالغ الطائلة التى جمعوها غيلة وغدراً - لا من الضرائب الظالمة التى فرضوها على الشعب المصرى فحسب ، لتغطية نفقات الحملة ، ولا كل ما جنته

فرنسا من مكاسب بالتلاعب فى دفعها مستحقات الحكومة المصرية من عائد شركة قناة السويس قبل تأميمها ومغالطة عدم تقدير الجنيه الورق بالقيمة الحقيقية للجنيه الذهب عند ارتفاع سعره إلى سبعة أضعاف وهذه قضية أخرى ، وإنما ليضف من يدعون العلم والحضارة فى بلاد الحرية والعدل والمساواة إلى كل ما تقدم من أموال نهبوها الدخل المهول الذى تحصل عليه فرنسا حتى الآن من عرضها كل تلك الآثار التى سرقوها علناً وفى الخفاء ومازالوا وليسددوا ما عليهم من ديون ثابتة . وأن تدرك فرنسا - إن كانت تبحث لنفسها عن مكانة فى الشرق فى القرن الواحد والعشرين - أن تراجع ماضيها برمته بكل ما فيه من مواقف استعمارية استغلالية ظالمة و ....» .

والآن ، إلى السادة الذين مازالوا يتحدثون عن آثار مشتركة ، نسألهم :

هل مازالت هناك آفاق مشتركة ..

إن الكلمة لن يرد عليها أحد ◆

ملاحق وصور

«الكوربيه دى ليجيت»

حيثيات محاكمة سليمان الحلبى

ووضعه على الخازوق

باسم الشعب الفرنسى

فى يوم ٢٧ بريريال من السنة الثامنة للجمهورية فى المنزل الذى يشغله الجنرال رينييه اجتمع ، بناء على قرار الجنرال مينو قائد جيش الشرق بالنيابة والذى صدر البارحة ، اجتمع قائد الفرقة رينييه وقائد اللواء روبان ومنظم البحرية لوروى والأمير آلاى أركان الحرب ماتينيه والأمير آلاى أركان الحرب موران ورئيس لواء المشاة جوجيه ورئيس لواء المهندسين برتران ومندوب الحروب رينييه ، والمندوب المنظم سارتلون قائماً بأعمال المقرر ، ومندوب الحروب لوبير قائماً بأعمال مندوب السلطة التنفيذية ، ومندوب الحروب بينيه كاتباً لهذه اللجنة ، وذلك للقيام بالمحاكمة النهائية فى قضية الاغتيال الذى وقع فى ٢٥ من الشهر الحالى على شخص القائد العام كليبر .

عندما اجتمعت اللجنة أحضر الرئيس الجنرال رينييه أمامه على المكتب نسخة من قرار الجنرال مينو سالف الذكر وتلاه على الحاضرين .

ثم تلا محضر الإعلام وتليت جميع الأوراق ومستندات الإثبات والنفى ضد المتهمين سليمان الحلبى وسعيد عبد القادر الغزى ومحمد الغزى وعبد الله الغزى وأحمد الوالى ومحمد أفندى .

وعند الانتهاء من تلك القراءات أمر الرئيس بإحالة المتهمين بوساطة المواطن براشويش Brachwich المترجم ، وقد أجابوا عليها مصرين على اعترافهم باقترافهم الجريمة المدونة بمحاضر التحقيق السابقة .

ثم سألهم الرئيس إذا كان لديهم أقوال أخرى للدفاع عن أنفسهم فترافع عنهم محاميهم المعين إدراياً ، وعند الانتهاء من مرافعته أمر الرئيس حراس المتهمين باعادتهم إلى السجن .

وسأل الرئيس أعضاء اللجنة عما إذا كان لديهم ملاحضات خاصة . ولما أجابوا

بالنفى رفعت الجلسة للمداولة . وألقى عليهم الأسئلة كما يلى :

سليمان الحلبى سنه ٢٤ سنة مقيم فى حلب متهم باغتيال القائد العام كليبر والمواطن بروتان المهندس المعمارى فى حديقة القيادة العامة فى ٢٥ الجارى . هل هو مذنب ؟

ثم أخذت الأصوات ابتداء من الرتبة الأولى . وقررت اللجنة بالإجماع ان المدعو سليمان الحلبى مذنب .

أما السؤال االثانى : سعيد عبد القادر الغزى مقرئ القرآن فى الجامع الأكبر المسمى بالأزهر ، مولود فى غزة ومقيم بالقاهرة ، متهم بالاشتراك فى الجريمة بأنه كان يعلم بمشروع اغتيال القائد الأعلى ولم يبلغ عنه ، وهرب بعد ذلك . هل هو مذنب ؟

فأقرت اللجنة بالاجماع أنه مذنب .

ثم وجه الرئيس للأعضاء السؤال الثالث : محمد الغزى سنه ٢٥ سنة ، مقرئ فى الجامع الأكبر مولود فى غزة، متهم بأنه كان يعلم بسرية اغتيال القائد العام وقد علم به فى الوقت الذى كان فيه القاتل فى طريقه للتنفيذ ولم يبلغ عنه . هل هو مذنب ؟

أجمعت اللجنة على أنه مذنب .

والسؤال الرابع وجه كالآتى :

عبد الله الغزى سنه ٣٠ سنة مولود فى غزة مقرئ فى الجامع الأكبر متهم بائتمانه على السر الخاص بمشروع اغتيال القائد العام ولم يبلغ عنه . هل هو مذنب؟

قررت اللجنة بالإجماع أنه مذنب .

ثم وجه السؤال السادس كما يلى :

محمد أفندى سنه ٨١ سنة من مواليد بورصة متهم بالاشتراك فى الجريمة . هل هو مذنب ؟

أقرت اللجنة بالإجماع أنه غير مذنب وأمرت بالإفراج عنه .

ثم طلب مندوب السلطة التنفيذية تطبيق العقوبة على المتهمين المذكورين أعلاه والذين ثبت أنهم مذنبون . فأخذت الأصوات على نوع العقاب الذى يناسب كل

مذنب ، وتليت المادة الخامسة من قرار الجنرال مينو بتاريخ البارحة وهى :

«على اللجنة تطبيق نوع العذاب الذى تراه مناسباً لمعاقبة المجرم الذى قام بالاغتيال وشركائه .

لقد اختارت بالإجماع نوعاً من العذاب ، يستخدم فى البلاد بالنسبة للمجرمين الكبار ، ويناسب فداحة الجرم ، ولهذا فقد حكمت على سليمان الحلبى بأن يحرق معصم يده اليمنى ، ثم يغرس فى مؤخرته وتد ليخرق أمعاءه ، ثم يترك وحيداً وبه الوتد إلى أن تأتى الغربان والطيور الجارحة لتنهش جسده . وينفذ هذا الإعدام على تل حصن المجمع فور دفن القائد العام كليبر ، أمام جنود الجيش وسكان القاهرة المتجمعين لتشييع الجنازة .

وقد حكمت غيابياً بالإعدام على سعيد عبد القادر الغزى وبمصادرة أمواله لصالح الجمهورية الفرنسية على أن تعلق وثيقة الحكم على الصارى المخصص لتعليق رأسه به ، وحكمت على محمد الغزى وعبد الله الغزى وأحمد الوالى بقطع رؤوسهم وعرضها فى مكان الإعدام . ثم تحرق أجسادهم على أكوام من الحطب ، تعد خصيصاً لهذا الغرض فى المكان نفسه . وينفذ حكم الإعدام فى المذنبين بالترتيب التالى :

عبد الله الغزى ، أحمد الوالى ، محمد الغزى ثم سليمان الحلبى .

يطبع من هذا الحكم ومذكرات المقرر باللغات التركية والعربية والفرنسية وتعلق خمسمائة نسخة منها .

وعلى المقرر العمل على تنفيذ هذا الحكم بأسرع ما يمكن .

صدر فى القاهرة فى اليوم والشهر والسنة عاليه وقد وقعه جميع أعضاء اللجنة وكاتب المحكمة .

تحسنت صحة المواطن بروتان المهندس المعمارى وعضو المجمع المصرى وهو الذى تطوع بشجاعة فائقة لحماية الجنرال كليبر ، ولكن بعد فوات الأوان ، وقد ناله من المجرم ست طعنات ، منها أربع طعنات خطيرة وقد صار الأمل الآن كبيراً فى شفائه مساء ٢٧ الجارى اليوم (وقد جاءت هذه المذكرة بناء على طلب المواطن ديجينيت كبير أطباء الجيش .

إسرائيل تلميذة بونابرت !

من حق إسرائيل أن تحتفي ببونابرت فهو أول من مهد لها طريق استعمار فلسطين – مهد لليهود الطريق بتخريب سواحل فلسطين وطرد سكانها ، كما نقرأ في كتاب "هنرى لورانس" عن الحملة الفرنسية في مصر فعندما أوقف الجزار باشا زحف الجيش الفرنسي أمام عكا ، وعاد بونابرت مهزوماً إلى مصر ، أمر تخريب السهول الساحلية وتطبيق سياسة الأرض المحروقة ، مما دفع فلسطيني تلك الفترة إلى تركها واللجوء إلى الأراضي المرتفعة . . فجاء اليهود والمهاجرين بعد ذلك يزاحمون أهل البلد في هذه الأراضي المنخفضة ، التي كادت أن تخلو من السكان بسبب تخريب بونابرت لها . وينهي هنرى لورانس وصفه لما حدث بقوله : "مرور بونابرت على فلسطين كان له عواقب فادحة لمستقبل البلد" . فالأمر إذا أخطر بكثير من الوثيقة المزعومة التي قيل إن بونابرت وعد فيها اليهود بوطن في فلسطين.

إن مجرد قراءة مشاريع بونابرت المستقبلية ، التي كان يحلم بها آنذاك ، تدل على زيف وثيقة ، تعد إحدى الوثائق المزورة ، وما أكثرها في جعبة الدعاية الصهيونية . نقرأ في كتاب "لورانس" أيضاً أن بونابرت إذا ما استقر في مصر ، أراد الزحف على سوريا حيث ينتظره الدروز والموارنة والعرب ، ومعهم الأكراد والأرمن والفرس والتركمان حتى يستولي على القسطنطينية إلى آخر الأحلام التي سيحطمها الجزار باشا بصموده في عكا . نفس الكلام سنراه مكرراً في كتاب «الميموريال» الشهير ، حيث كان نابليون المنفي يطلق تهويماته في آخر حياته . نلاحظ أن أسماء هذه الشعوب كما كان يقول عنها بونابرت ، لا تحتوى على شعب اسمه "اليهود" ، لسبب بسيط ، أن عدد هؤلاء اليهود ، في ذلك الزمان والمكان ، لم يكن يكفي لذكرهم بالمرة . فلا يستطيع بونابرت إن يعد أناساً لا ذكر لهم ولا وجود ، بإنشاء وطن لهم . ولكن تخريبه لفلسطين فتح لهم أرضاً ما استطاعوا الاستيلاء عليها دون فعلته الشنعاء تلك .

وتحتفل إسرائيل بمرور خمسين عاماً على نشأتها . وحسب معلوماتي ، أن اسم بونابرت لم يذكر ، مع أن دولة إسرائيل لا تدين له بوجودها على أرض فلسطين المغتصبة فقط . فإسرائيل أيضاً ، دون أدنى شك ، هي التلميذة النجيبة لبونابرت ،

مستعمر مصر . كان بونابرت أول من أبدع الحجة الأخلاقية لغزوه بلداً مسالما وتحويله إلى مستعمرة لنشر الحضارة فيه . وكانت دعاية صهاينة ما بعد ١٩٤٨ تؤكد دفاعهم الاستشهادى عن الحضارة الغربية فى منطقة قالوا عنها أنها نائية ومتخلفة . فكان التعاطف الأوربى لهم ضد العرب ، ومن أهم أسباب مساعدة الغرب لهم . لذا أصبحت إسرائيل مستعمر يلجأ إلى هذه الحجة الواهية التى ابتدعها بونابرت لتبرر فتوحاته التوسعية .

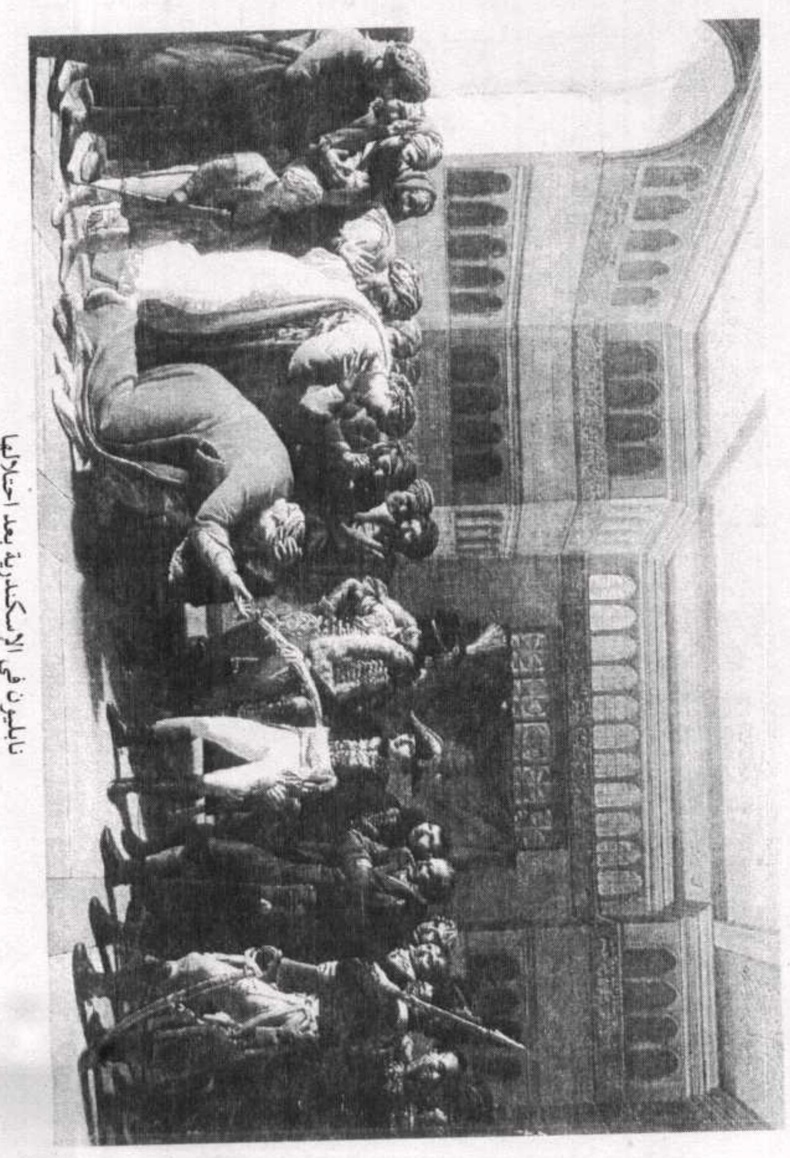
ولم تكتف إسرائيل باتباع منهجه فى التضليل الإعلامى فقط . ولكنها أخذت منه أيضاً وسائل السيطرة الكاملة على إدارة الشئون المحلية فى مصر ، لا تختلف نباتاً عن النظام الذى ابتدعته إسرائيل باسم "الحكم المحلى" فى فلسطين . ففى خطابات كليبر التى نشرها "هنرى لورانس" ، نجد البنود التفصيلية لهذه الدواوين ، وعلى رأس كل منها ملاحظ عسكرى فرنسى ، والمسئولون فى هذه الدواوين لا يتحركون إلا بأمرة الضابط الفرنسى والاسم "حكم ذاتى" ! فالاسم مضلل : "حكم محلى" و"شرطة وطنية" ، والحقيقة أن هذه الدواوين ، بصريح العبارة ، لا هدف لها إلا حماية المستعمر وبأمره فهى ، أولا وأخيراً ، مسئولة عن النظام والأمن هذا النظام وهذا الأمن .. لا يعنى إلا كبت الثورات ومنع المتمردين من إضرار الفرنسيين .. كما أن الشرطة الفلسطينية تعتبر المسئول الأول عن سلامة المستوطنين اليهود ، وعليها أن تحافظ ، قبل كل شىء ، على النظام .. أى نظام ؟ النظام الإسرائيلى الذى يتهم السلطة الفلسطينية دائماً بالتراخى فى واجبها الأول ، أى المحافظة على سلامة الإسرائيليين ، وكان بونابرت عبقرية إعلامية ، عرف الإسرائيليون كيف يستفيدون أيضاً من دروسه العملية ، وهو الذى ورث من ثورة ١٧٨٩ أسرع وسائل الإبادة ليربح بالله ويستمر فى مخططاته الاستعمارية .

فإسرائيل هى فعلاً الممثلة للحضارة الغربية فى منطقتنا ، حضارة الاستعمار الدموى وازدراء كل ما يختلف عنها ، وصلف القوى الغاشم الذى لا يفهم إلا لغة قوة مهارتها الوحيدة أسلحتها ، وفى تغليف أفعالها بالقول المعسول . إسرائيل هى بونابرت العصر الحديث ، فى أسوأ جوانب شخصيته المدمرة .

أ . د . ليلى عنان

أستاذ الحضارة الفرنسية

جامعة القاهرة



نابليون في الإسكندرية بعد احتلالها



ثورة القاهرة الأولى ٢١ أكتوبر ١٧٩٨



نابليون فى عكا يتفقد مرض الطاعون



خط سير الحملة الفرنسية



٧ - (أ) كافاريللى.



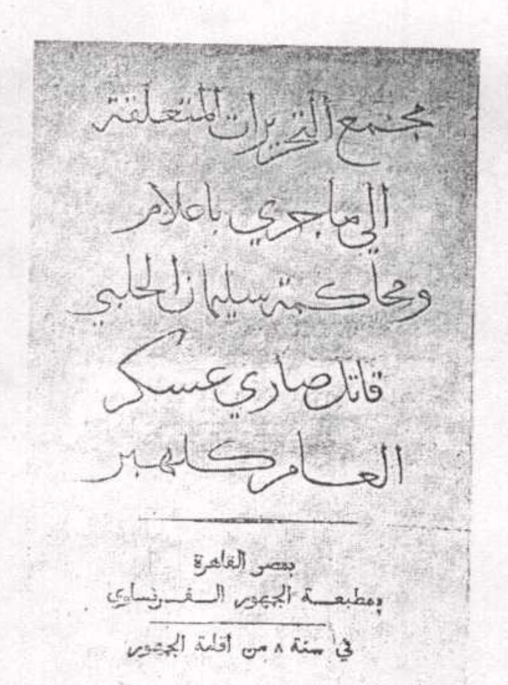
صورة ذات دلالة
لـ نابليون بونابرت
كما رآها رسام فرنسي



(ب) بلزاك.



(ج) جومار.



مجمع التحريرات المتعلقة
الي ما جري باعلام
ومحاكمة سليمان الحلبي
قاتل صاري عسكر
العام كلهبر

بمصر القاهرة
بمطبعة الجمهور الفرنساوي

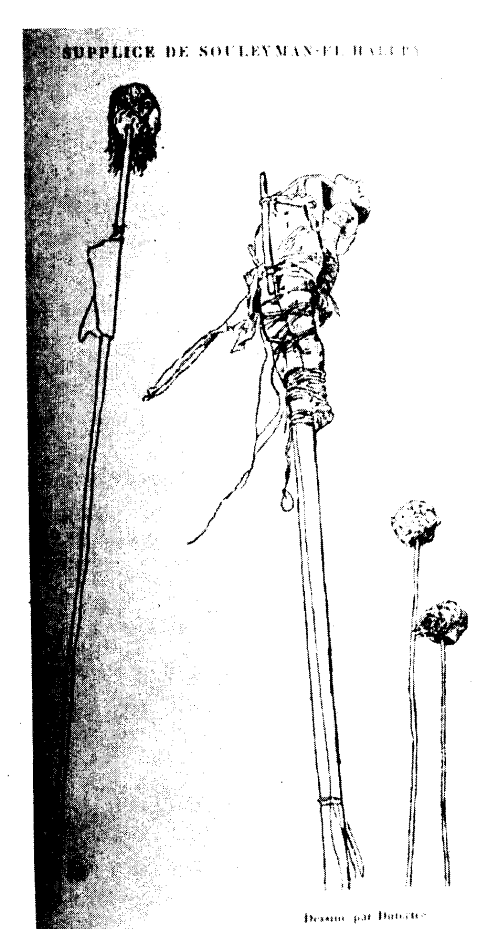
في سنة ٨ من اقامة الجمهور

The title page concerning the trial of Soliman el-Halaby, assasinator of General Kleber, Second-in-Command of the French Expedition.
(See page 14)



الشهيد سليمان الحلبى

Fig. 87 - Suleyman al-Halabi



Dessiné par Dutertre

رسم سليمان الحلبى وهو على الخازوق
بريشة ديترتر (Dutertre) رسام الحملة الفرنسية
(ويرى القارئ رؤس الشيوخ الثلاثة)

[illegible] l'Irlande eut obtenu [illegible] [illegible] [illegible] de l'Angleterre, elle [illegible] [illegible] [illegible] et [illegible] chambre des communes et sa chambre des pairs; mais il fut établi que le Roi qui règne sur l'Angleterre est en même temps roi d'Irlande. Il en résulte que tout ce qui a rapport à la paix, à la guerre et aux relations diplomatiques, est étranger au parlement d'Irlande; il doit se borner à l'administration intérieure du pays. Ce parlement [illegible] [illegible] peuple irlandais; car [illegible] [illegible] des hommes [illegible] que la [illegible] [illegible] à chaque élection, les [illegible] [illegible] au moins de la nation n'[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] nation de la chambre des [illegible], [illegible] d'élire et d'être élu étant attribué aux protestans à l'exclusion des catholiques, or presque tous les Irlandais sont catholiques, et les protestans qui s'y trouvent descendent d'Anglais qui suivirent Cromwel dans son expédition contre ce pays. Ils furent récompensés de leurs services par la confiscation des domaines des catholiques dont on leur fit présent. Les descendans de ces catholiques expropriés existent encore et tiennent à presque toute l'Irlande. Le pays est donc partagé en deux partis : l'un, issu d'étrangers, gouverne sous l'autorité du lord lieutenant qui est un vice-roi nommé par le gouvernement anglais ; l'autre, dépouillé par le premier, et retenu long temps dans l'asservissement le plus absolu, a recouvré sur la fin de ce siècle l'espérance de remonter au point où il en était avant Cromwel. Pendant la guerre d'Amérique il est venu à bout, à l'aide de quelques membres du parlement qui, soit amour de la liberté, soit esprit d'opposition au ministère, lui ont prêté leur appui, il est venu à bout, disons-nous, de faire abroger quelques loix oppressives et accablantes qui furent portées contre lui dans le temps où le fanatisme protestant dominait en Angleterre ; mais il était demeuré exclu des droits politiques ; c'est par leur réclamation que la querelle actuelle s'est engagée. Le parlement, soufflé par le ministère, s'est obstinément refusé à la restitution de ces droits ; c'était précisément le moment où le bruit de nos armes victorieuses et de la liberté conquise retentissait par toute la terre. Les Irlandais furent indignés ; le gouvernement se vit obligé d'employer la force militaire pour les contenir. Cette mesure accrut la colère publique ; des cantons furent mis hors de la paix du roi, c'est à dire que les personnes et les propriétés furent mises à la merci des troupes qui y étaient stationnées. Les réclamations portées à ce sujet, tant au parlement d'Angleterre, qu'à celui d'Irlande, n'ont eu aucun lieu.

Telle était la situation des affaires en Irlande, lorsque l'armée d'Orient est partie d'Europe ; nous rendrons compte de ce qui s'y est passé depuis dans le n.° suivant.

FRANCE.

Suite du décret du 1.er n.°, et des séances du corps législatif.

III. La disposition de l'article premier est applicable aux jugemens rendus depuis le 13 vendémiaire dernier, et qui se trouvent dans le cas prévu par le même article.

Le Directoire exécutif prendra les mesures nécessaires pour renvoyer, sans délai les prévenus devant les conseils de guerre des divisions militaires les plus voisines de celles où ils ont été jugés.

Les 1 et 2 messidor, on a discuté au conseil des cinq cents un projet de résolution qui détermine la manière dont seront indemnisés les citoyens qui ont été privés de leurs propriétés pour cause de service public.

Le 3 messidor, on a repris la discussion sur les testamens militaires ; elle n'est pas encore terminée.

Le 4 messidor, le conseil des cinq cents a entendu la lecture d'un projet de loi pour fixer les formalités que les citoyens devront suivre pour être admis à l'exercice de la médecine.

Le 5 messidor, le conseil des cinq cents a pris une résolution pour assurer l'établissement des nouveaux poids et mesures.

COURIER DE L'EGYPTE.

N.° 3.

LE 20 FRIMAIRE, VI.e ANNÉE DE LA RÉPUBLIQUE.

NOUVELLES.

Suite de l'article sur l'Irlande et l'Angleterre.

Vers le commencement de prairial, le comité suprême des Irlandais unis a publié la proclamation suivante :

ART. I.er Les Irlandais absens de leur pays natal sont invités de la manière la plus pressante, en quelque région qu'ils se trouvent, à retourner incessamment dans leur patrie, ou du moins à y faire passer tous les secours pécuniaires et autres qui seront en leur pouvoir, afin d'aider leurs braves compatriotes à secouer le joug de la tyrannie anglaise dont le comité fait en peu de mots la peinture la plus déchirante.

II. Il est rigoureusement enjoint à tout Irlandais qui se trouve au service du roi d'Angleterre, de le quitter sans délai, sous peine de déchéance absolue et à jamais irrévocable de leurs droits de citoyens Irlandais. Quant aux Irlandais servant dans l'armée britannique, et pris les armes à la main, point de rémission ; ils seront pendus ou fusillés sur-le-champ.

III. Promesse solemnelle et sacrée de récompense à tous les Irlandais qui abandonneront le parti ennemi pour venir au secours de leur patrie opprimée. Tout soldat, désertant avec armes et bagages, est sûr d'en recevoir le prix à l'estimation ; il en sera de même des matelots qui amèneront dans quelqu'un des ports d'Irlande un bâtiment britannique, soit de guerre, soit marchand : de plus, on aura des égards particuliers pour ces honorables déserteurs, dans le partage qui aura lieu entre les défenseurs de la patrie, des biens ecclésiastiques. (Ils embrassent à-peu-près le tiers du sol de l'Irlande).

Les papiers anglais annoncent que dès le 26 mai (8 prairial,) le lord Camden vice-roi en Irlande avait fait un message aux deux chambres pour leur annoncer qu'un plan d'insurrection générale était sur le point d'être mis à exécution, et qu'au premier juin (13 prairial) au plus tard, les rebelles (les insurgens) devaient être secondés par les forces de la France.

Le 25 mai (6 prairial), le même lord écrivait au duc de Portland qui est le ministre chargé en Angleterre du département de l'intérieur, que les chefs des Irlandais unis avaient ordonné à leurs partisans de se tenir prêts à agir. Le lord Camden craignait que la ville de Dublin et les districts adjacens ne fussent en mouvement dans la soirée : il prit des mesures qui empêchèrent l'insurrection d'éclater dans cette ville ; mais il ne put la prévenir dans les comtés de Meath et de

Ce fut [illegible] n'a produit d'autre sentiment que celui de l'attention; mais dès que les divers instrumens, tels que hautbois, clarinettes et cors se sont unis à la fête, les éléphans se sont livrés à la joie la plus vive. L'hilarité de ces animaux étoit à son comble, et s'en manifestoit par une sorte de délire, quand on a joué la *Fandago* des français, le *Ça ira*. La femelle sur-tout se faisoit remarquer par le mouvement continu de ses oreilles, par le jeu de sa trompe et par cette espèce de cri que Buffon appelle le cri d'amour. Nous tenons ces détails intéressans du célèbre peintre des fleurs Van-Spandonk, témoin oculaire de l'expérience.

Signé SIAUVE.

Bayonne, le 11 messidor.

Le 10 messidor a été un beau jour pour tous les amis de la liberté qui se trouvoient dans cette commune; nous avons eu le plaisir de recevoir parmi nous le brave Général Kosciusko, qui, arrivant des États-Unis d'Amérique, sous le nom supposé d'un [illegible] de Philadelphie, a repris ici son vrai nom.

Les administrateurs municipaux et le commissaire du directoire ont été au-devant de lui; on lui a rendu tous les honneurs militaires, et placé à la [illegible] du président de l'administration, il a assisté à la fête de l'agriculture. Au moment si touchant où les laboureurs, mêlés avec nos braves soldats, échangèrent leurs faulx et leurs pioches contre leurs armes, ses yeux se sont [illegible] [illegible] du terme; [illegible] *Ce serait comme* [illegible] *ne nous eût été* [illegible].

Kosciusko va se [illegible] est résolu de renvoyer à [illegible] présent qu'il lui a fait, en [illegible] qu'il ne peut y avoir aucun rapport entre lui et l'oppresseur de la Pologne. Il est à peu près guéri de ses nombreuses blessures.

Fecamp, le 13 messidor.

Le 13 au matin, est parti de notre ville, le grand convoi qui conduit à Caudebec la riche et très-précieuses collection de plantes exotiques et autres objets d'histoire naturelle, apportés de l'Amérique par le citoyen Baudin. Trente-six énormes chariots à la suite les uns des autres, et chargés de tant de choses extraordinaires, ne pouvoient manquer d'attirer les regards de tout le peuple; aussi, notre ville fut-elle déserte la plus grande partie du jour, et peut-être fussions-nous allés jusqu'au lieu qu'a choisi ce capitaine, si la crainte de gêner sa marche ou de nuire à l'embarquement de ses plantes, qui vont se rendre à Paris par la Seine, ne nous eût fait un devoir de nous retirer après l'avoir accompagné à plus d'une lieue des barrières.

— Le général Quantin, bon républicain, vient d'être nommé par le Directoire, commandant de la 9.e division, dont le quartier-général est à Nîmes. [illegible] les compagnons de Jésus.

Le citoyen MARC AUREL, *prévient ses concitoyens que le prix* [illegible] *numéro est de Six médins, que l'abonnement de dix numéros sera de* Cinquante. *Il ne recevra aucun abonnement que l'on ne paye d'avance. Il prie les citoyens du dehors qui désireront s'y abonner, d'affranchir leurs lettres et l'argent. On s'adresse à l'adresse ci-dessus.*

Au Caire, de l'Imprimerie de Marc AUREL, Imprimeur de l'Armée; au quartier des français.

COURRIER DE L'ÉGYPTE

N.° 6.

2.e Jour Complémentaire VI.e Année de la République.

NOUVELLES.

Traduction d'une lettre adressée au Chérif de la Mecque par les Chefs et notables du Caire.

[illegible] au ciel, les vœux [illegible] de lui faire [illegible] des jours précieux de [illegible] le prince des fidèles, l'ornement du bandeau royal de la postérité [illegible] Hachim, le fleuron de la couronne [illegible] la race [illegible], le Chérif Ghâleb [illegible] de la Mecque [illegible] le tout-puissant [illegible] élever au plus haut degré de gloire, [illegible] de ses plus insignes faveurs [illegible] une protection spéciale, et [illegible] de tout [illegible] [illegible] [illegible] des jours et [illegible] en considération des [illegible] de tous [illegible] le plus [illegible]

[illegible] notre [illegible] dont le génie actif [illegible] de veiller aux intérêts de la [illegible], comme [illegible] [illegible] les Beys descendants [illegible], un des plus illustres [illegible] [illegible] seigneurs les Chérifs, tous les docteurs de l'Islamisme habitant de la Mecque, [illegible] les imams prédicateurs, et généralement tous les négocians et employés dans le gouvernement de la ville Sainte; que le 7 du mois de Safar qui tomboit un samedi, l'armée française s'est présentée sur le territoire de Giza sur la rive occidentale du Nil, et y a livré le même jour aux Mameloucks un combat qui a duré deux heures environ. L'issue de ce combat a été fatale aux Mameloucks, qui ont été forcés de prendre la fuite vers le coucher du soleil, après avoir laissé sur-le-champ de bataille un grand nombre de leurs combattans. Le lendemain au matin, une députation des docteurs de la loi et des notables de la ville du Caire, se transporta à Giza pour demander sauve-garde et protection en faveur des habitans excepté les Mameloucks et leurs adhérens. Le général en chef leur accorda leur demande. Les mêmes députés demandèrent que le Khoutbe c'est-à-dire [illegible] que les prédicateurs des mosquées, ont coutume de faire pour sa Majesté [illegible], le vendredi, à la prière du midi, ait lieu comme ci-devant. Le général en chef y [illegible] d'une manière [illegible] et il ajouta qu'il étoit un des plus dévoués amis de l'Empereur des Ottomans, qu'il chérissoit ceux qui lui étoient attachés et que tous ses ennemis étoient les siens [illegible]

Et de suite, il ordonna que les exercices religieux se fissent librement comme à l'ordinaire dans la ville du Caire, et que la proclamation de la prière, la lecture

en conséquence l'ouverture des mosquées, et tous actes de piété, reprisent leurs cours. Il a fait plus encore; il informa la députation, qu'il étoit pénétré de la vérité incontestable, qu'il n'y a d'autre Dieu que Dieu, que les français en général étoient remplis de vénération pour notre prophète et le livre de notre sainte loi, et que beaucoup d'entre eux étoient même convaincus de la supériorité de l'Islamisme sur toutes les autres religions; et en preuve, le Général cita la délivrance de tous les Musulmans qu'il trouva esclaves à Malte lorsqu'il eut le bonheur de s'en emparer, la destruction des églises chrétiennes et des croix, dans les états qu'il a conquis et particulièrement dans la ville de Venise, où il a fait cesser les vexations qu'on faisoient aux Musulmans, le renversement du trône du Pape, qui légitimoit le massacre des fidèles et dont le siège étoit à Rome. Cet ennemi éternel de l'Islamisme, qui faisoit croire aux chrétiens, que c'étoit une œuvre méritoire aux yeux de Dieu que de verser le sang des vrais croyans, n'existe plus pour le repos des fidèles sur lesquels le tout puissant veille avec bonté.

Lorsque les pelerins de la Mecque s'approcherent du Caire, le Général de l'armée française, se transporta; lui même dans la province de la Charkie sur les nouvelles qui parvinrent que les Arabes voleurs et assassins, les avoient dispersés et dépouillés: ses troupes françaises recueillirent tous ceux qui avoient échappé à la déprédation et à la mort, leur procurèrent des montures et donnerent à manger et à boire à ceux qui avoient faim et soif.

Le Général, plusieurs jours avant de venir dans la Charkie avoit écrit à la caravanne des pelerins pour l'inviter à se rendre en droiture au Caire, où il leur eut fait l'accueil le plus gracieux. Malheureusement ses lettres ne parvinrent point, et elle a subi ce que le destin avoit ordonné d'elle.

L'Ouverture du canal de la ville du Caire, s'est faite cette année avec plus de pompe que de coutume, dans la vue sans doute de complaire aux fidelles, et de dissiper leurs inquiétudes et leurs soucis. Le Général a distribué des sommes considérables en aumônes aux pauvres, et il a donné un festin aux notables. De même aussi le jour de la naissance du prince des prophêtes, il a dépensé beaucoup d'argent pour la fête qui a eu lieu et qui a été des plus brillantes, à la satisfaction des vrais croyans. *Nous sommes à Dieu, et nous retournerons à lui.* Nous devons surtout ne pas vous laisser ignorer que le général a témoigné le plus grand desir pour la nomination d'un Emir Hadj, et pour toutes les dispositions qui doivent précéder l'expédition de la caravanne des pelerins. Nous avons été d'avis ainsi que lui de donner cette honorable commission au très distingué l'Emir Mustapha Agha, Kiaya de son excellence Aboubekir Pacha Gouverneur du Caire. Et ce choix nous a paru devoir être agréable à la sublime Porte, en ce qu'il assure ses droits sur un des points qui lui tiennent le plus à cœur. Aussi cette disposition a-t-elle répandu la joie et la sécurité chez tous les Musulmans.

Le Général de l'armée Française montre le zèle le plus actif pour les intérêts des deux sanctuaires, et il s'occupe avec assiduité de tout ce qu'il y a à faire pour l'expédition de la caravanne des pelerins. C'est ce qu'il nous a recommandé de vous faire savoir comme témoignage [illegible] qu'il prend pour cet objet important afin que de votre côté vous fassiez ce qui vous paroîtra convenable.

Salut et mille fois salut de paix sur cet envoyé glorieux qui est venu annoncer la vérité aux hommes, et qui a été doué de toutes les perfections et de toutes les vertus. Salut aussi sur son illustre famille et sur les vénérables compagnons de sa mission divine.

Fait au Caire, le 20 de la lune de Roby-il-ewel, l'an de l'Egyre 1213.

Suit un grand nombre de signatures.

ARRÊTÉ DU GÉNÉRAL EN CHEF.

Colonne, Art. Ier. Tous les habitans de l'Égipte porteront la cocarde tricolore.

II. Toutes les germes employées à la navigation du Nil, porteront le pavillon tricolor.

III. Les Généraux, les Commandans des Provinces, les Officiers Français, à dater du premier vendémiaire, n'admettront plus aucun individu du pays à leur parler, s'il n'a la cocarde; tout comme les postes situés sur le Nil, les Commandans français des avisots et autres chaloupes armées; les commandans des armes de Rosette, Damiette et Boulac, feront observer aux patrons des germes que, passé le 15 vendémiaire, ils ne pourront plus naviguer sans le pavillon tricolor.

IV. Les membres seuls du Divan, pourront porter sur l'épaule, le Schalws tricolor.

V. Au premier vendémiaire, le pavillon tricolor sera arboré sur le plus haut Minaret du château du Caire, et sur les plus hauts Minarets des chefs-lieux des Provinces.

Signé, BONAPARTE.

[illegible] du Salisteur

[illegible] Camille-Desmoulins; [illegible] Républicains, [illegible] et d'une [illegible] à la liberté, à tes amis; [illegible] délicieuses tes yeux se rempliroient [illegible] de cet arrêté, toi qui le 12 juillet 1789 arborant le premier un signe sacré de la liberté française, t'écrias avec transport au milieu d'un peuple nombreux [illegible] par les dangers de la patrie *La cocarde tricolore fera le tour du monde!*

On avoit inspiré quelques inquiétudes à des habitans du Caire au sujet de cet ordre. Le général en chef n'a pas voulu [illegible] à d'autres le soin de les dissiper. Il a fait appeler près lui les membres du Divan et quelques hommes influens sur l'esprit de la multitude. Il a entendu leurs objections; il les a refutées avec avantage; il est même entré à cet égard dans des discussions théologiques qui ont étonné et convaincu les Turcs. Il a ainsi dissipé les inquiétudes des hommes prévenus, et après deux conférences fort longues, les membres du Divan se sont, en sa présence, revêtus de la cocarde tricolore et ont assuré que bientot tous les habitans de l'Egypte la porteroient.

Le succès obtenu dans cette affaire par Bonaparte prouve que tous les hommes même les moins instruits et par conséquent les plus accessibles aux préjugés et aux préventions ne sont jamais insensibles au langage de la raison et de la douceur, surtout lorsqu'il se trouve dans la bouche de celui qui a entre les mains la force et le pouvoir. Et cependant dans la longue succession des siècles et des révolutions des empires, combien de sang versé pour des opinions, pour des mal-entendus! puisse la fin du 18e siècle si brillant par les exploits militaires d'une grande nation, l'être encore davantage par le triomphe constant de la raison sur les préjugés!

Italie.

L'occupation de la citadelle de Turin par les troupes françaises a eu lieu d'après un accord fait entre le Général Brune et le Marquis de St. Marsan lieutenant colonel de l'armée Sarde. Par un des articles du traité, le gouvernement français s'engage à contribuer au maintien de la tranquilité intérieure du Piémont et à employer son influence pour faire cesser toute hostilité de la part de la république Ligurienne, et pour empêcher toute agression de la part de la république cisalpine.

Aussitôt que les Liguriens et les insurgens ont eu connoissance de cet arrangement, ils ont cessé leurs hostilités, afin de connoître les intentions ultérieures du directoire exécutif de France.

[illegible] l'artillerie, laissant un espace suffisant pour placer le cortège, on s'est rendu à la grande mosquée, et le drapeau tricolor a été arboré sur le plus haut Minaret ; ensuite, promenade militaire dans la ville.

A midi, salve d'artillerie :

A quatre heures, le même cortège est venu prendre le général, et s'est rendu au cirque, où les troupes ont manœuvrés et exécuté différens feux, ce qui a infiniment surpris les habitans du pays.

A cinq heures, ont commencé des courses à pied.

Il y avoit seize courreurs Turcs, et seize courreurs Français, chaque bande étoit divisée en quatre quadrilles. Les Turcs ont [illegible] les premiers, de chaque quadrilles, [illegible] ou Français, le vainqueur étoit mis [illegible].

[illegible], à une cinquieme course, les [illegible] vainqueurs Turcs ont concouru [illegible], celui qui a touché le premier [illegible], a eu pour prix, un gobelet d'ar[illegible], et une pièce d'étoffe de soye.

Les quatre vainqueurs Français, ont concouru ensuite, et celui qui a atteint le [illegible], a eu pour prix une montre d'or.

A [illegible] heures, illumination générale [illegible] toute la ville, dans les mosquées, et [illegible], le cirque étoit particu[illegible] illuminé.

et feu d'artifice tiré dans le cirque ; grand concours de peuple ; danses et musiques dans la ville. Tout s'est parfaitement passé ; le peuple est content.

Extrait de l'ordre du jour, du 12 vendémiaire.

Le payeur général de l'armée, ayant des mesures à prendre à l'égard de la partie d'apointemens que les officiers des différens corps ont abandonné avant leur départ de Toulon en faveur de leurs épouses ; le général en chef ordonne aux conseils d'administration, et aux commandans de détachemens, d'envoyer au payeur général, dans le plus court delai, un état présentant, tant les retenues qui ont déja été faites pour cet objet, que les noms des officiers qui les ont supportées.

AVIS DIVERS.

Le 17 vendémiaire, à 9 heures du matin, on vendra chez le citoyen [illegible] négociant Français, contrée Française, les effets d'un officier, qui va partir pour la France.

Le citoyen Marc Aurel [illegible] en vente, le [illegible] N.° de la décade [illegible], Journal [illegible] tous les 10 jours. Chaque N.° sera composé de deux [illegible] [illegible] Le prix sera de [illegible] [illegible] à l'adresse ci-dessus.

Le citoyen Marc AUREL, prévient ses concitoyens que le prix de son [illegible] Six medins, que l'abonnement de trente numeros sera de Cent-cinquante. Il [illegible] que l'on ai payé d'avance. Il prie les citoyens du dehors qui [illegible], d'affranchir leurs lettres et l'argent. On souscrit à l'adresse ci-dessus.

[illegible], de l'Imprimerie de Marc AUREL, Imprimeur de l'Armée ; au quartier des français.

COURIER DE L'EGYPTE

N.° 11.

LE 20 VENDÉMIAIRE, VII.e ANNÉE DE LA RÉPUBLIQUE.

NOUVELLES.

SYRIE.

On assure qu'Ibrahim-bey a envoyé auprès de Djezzar pacha, Mustapha-bey le grand, afin de l'engager à se réunir à lui pour marcher contre les Français ; Djezzar pacha l'a fait arrêter. Alors Ibrahym lui a envoyé sa femme et sa fille, mais elles n'ont pas été plus heureuses ; Djezzar pacha les a renvoyées, en annonçant à Ibrahym qu'il ne se fioit point à toutes ces promesses, et qu'il connaissait trop bien la manière dont les beys témoignaient leur reconnoissance à ceux qui les servaient, pour être tenté de rien faire pour eux ; que d'ailleurs l'exemple d'Osman-bey el-Tobal, exilé par eux dans le Saïd, après avoir contribué à établir leur puissance, n'était pas fait pour le rassurer.

ÉGYPTE.

Belbeys, le 2 vendémiaire.

Hier à sept heures du matin ; en conséquence de l'ordre du Général en Chef, du 11 fructidor dernier, et conformément à ceux du général divisionnaire Reynier, se sont assemblés hors de l'enceinte de leur camp, les 2.e et 3.e bataillon de la 9.e demi-brigade d'infanterie de ligne, un détachement du 6.e bataillon de sapeurs, pour célébrer l'anniversaire de la fondation de la République et du renversement de la monarchie.

Le général Reynier, accompagné de son état-major, du divan de la province de Charqyèh, et de la compagnie des Janissaires, s'est rendu au lieu de la réunion ; et après avoir fait placer le drapeau tricolor au plus haut minaret, et fait exécuter aux troupes plusieurs évolutions militaires, il a prononcé un discours, ainsi que l'adjudant général Beauvais. Ces deux discours ont été suivis des cris mille fois repétés de *vive la République*, et de plusieurs coups de canon. Les troupes ont ensuite défilé au son de la musique militaire qui a exécuté plusieurs airs et marches patriotiques. La fête a été terminée par une course arabe, exécutée par les Janissaires de la province.

KAIRE.

C'est principalement lorsque l'on est éloigné de sa patrie, que l'on se rappell

[illegible] mémorables de la révolution. Celle du 13 vendémiaire ne devait pas échapper au souvenir des Français qui se trouvent en Égypte. Si elle fut désastreuse pour quelques individus, elle fut le port du salut pour tous les républicains; elle arracha au royaliste son poignard, elle remit à flot le vaisseau de l'État, violemment agité par tous les partis; elle assura la stabilité du nouveau gouvernement, elle réveilla l'énergie des patriotes, elle fut le prélude des victoires qui depuis ont honoré le nom Français. Elle mit en évidence, et fit rendre justice à cet homme qui depuis a illustré sa patrie par tant de grandes choses. Après avoir vaincu les royalistes de l'intérieur, il alla en Italie, en Allemagne, faire respecter l'étendard républicain; il augmenta la famille des peuples libres, et il donna la paix au continent.

Il y a eu au Kaire plusieurs réunions de Français pour célébrer cette époque mémorable. Dans l'une où se trouvaient plusieurs militaires qui avaient contribué à cette victoire, on a porté les *toasts* suivans, dans la composition desquels le véritable patriotisme et la saine philosophie se trouvent réunis.

1. *Au 13 vendémiaire.* Puisse le souvenir de cette journée célèbre ne pas s'effacer de notre mémoire! puissions-nous ne la renouveler jamais!

2. *Aux bonnes loix.* Elles sont au corps social, ce qu'est la santé au corps humain.

3. *Aux limites des pouvoirs en France.* Trop accumulés, ils tendent au despotisme; trop divisés, à l'anarchie.

4. *A l'union de la science et de la force.* Omar brula la bibliothèque des Ptolémées; il fit doublement le malheur des peuples, en leur apportant le fléau de la guerre, et celui de l'ignorance. Bienfaiteurs du genre humain, soyons en même temps ses instituteurs et ses modèles.

5. *A la civilisation de l'Égypte.* Nous donnons au monde le premier exemple d'un législateur conquérant. Jusqu'à nous, les vainqueurs avaient toujours adopté les loix des vaincus. Remportons sur eux le triomphe de la raison, plus difficile que celui des armes; et montrons nous autant supérieurs aux autres nations, que Bonaparte l'est à Gengis.

6. *A la régénération de la marine.* Puisse-t-elle réparer un jour ses malheurs!

7. *Au général Bonaparte.* Dans l'espace de trois années, il a laissé bien loin derrière lui, les hommes de tous les pays et de tous les siècles. Puisse-t-il vivre assez pour être témoin de l'admiration de l'Europe libre, et de l'Afrique civilisée.

8. *Aux fondateurs de la République.* Vous avez cimenté de votre sang, l'édifice que vous avez construit, et que nous maintenons; recevez nos hommages. Vous vivez dans le cœur de tous les hommes libres.

9. *A l'armée.* Puisse-t-elle, après de longues fatigues, et de nombreux exploits, reporter enfin dans la France pacifiée les lauriers qu'elle acheta de son sang.

10. *A la paix générale.* Nous avons combattu pour elle; elle fut le but de tous nos travaux: qu'elle en soit bientôt la récompense!

A la fin du repas le citoyen Benahen, a lu une ode dont nous rapporterons quelques strophes. Elles font honneur aux talens et au patriotisme de l'auteur qui, jeune encore, promet à la cause de la liberté un chantre agréable et un défenseur énergique. Qu'il cultive avec soin les talens qu'il a reçus de la nature; et nous lui garantissons des succès honorables dans la carrière littéraire.

Pour le 13 vendémiaire.

1. Salut! immortelle journée,
Dont les mémorables bienfaits,
A ma patrie ensanglantée
Ont rendu l'espoir et la paix,
Ton nom à tout Français rappelle
D'une horde esclave et rebelle
L'attentat et le châtiment.
Salut à l'immortel génie,
Qui d'une affreuse tyrannie
Brisa le coupable instrument.

2. Dieu! quelle scène d'épouvante!
Fort-Jean! sur tes affreux créneaux,
Quelle main de sang dégoûtante
Attacha ces tristes lambeaux!
Je vois, en frémissant, la pierre
Où, sous les regards de leur mère,
Ces enfans sont mort écrasés.
Souris au deuil de tes victimes,
Infame Pitt! voilà les crimes
Que ton ame atroce a causés.

3. Bientôt une horde proscrite
De vils satellites des rois,
En rugissant, se précipite
Dans le sanctuaire des lois.
C'en était fait de ma patrie,
Si du héros de l'Italie
Elle n'eût invoqué le bras;
Il parut, et sa main puissante
De cette cohorte insolente
Disperse les nombreux soldats.

6. Ainsi, sous le ciel moins sauvage
Où j'ai passé mes plus beaux jours,
Quelquefois un épais nuage
Du soleil obscurcit le cours:
Il semble vouloir à la terre
De sa bienfaisante lumière
Dérober l'éclat précieux;
Mais un rayon vainqueur l'entr'ouvre,
Et l'œil ébloui ne découvre
Que le brillant azur des cieux.

7. Héros, enfant de la victoire
Dont le bras sauva mon pays,
Ta vie appartient à l'histoire;
Elle en est le juge et le prix.
Du temps ne crains point le ravage:
Le temps efface-t-il l'image
Des Camille et des Scipions?
Digne héritier de leur vaillance
Tu sus, en illustrant la France
Réunir en toi ces deux noms.

Assemblée du Divan Général

De l'Égypte.

D'après l'ordre du général en chef, des députés de toutes les provinces de l'Égypte sont en ce moment réunis au Kaire, sous le titre de Divan général. Ils ont tenu leur première séance le 16 vendémiaire: les citoyens Monge et Bertholet remplissent auprès de cette assemblée les fonctions de commissaires Français. La beauté du costume musulman, la gravité des personnages, le nombreux domestique qu'ils ont à leur suite, contribuent à donner une grande majesté à cette réunion. Le cheykh A'bd-allah el-Cherqaoui a été choisi pour président. Nous ferons connaître à nos lecteurs ce que cette assemblée pourra présenter d'intéressant, soit sous le rapport politique, soit sous celui de la connaissance des hommes dénués d'instruction et de civilisation.

On assure que les troupes de la division du général Desaix ont battu les Mamlouks qui ont suivi Mourad-bey: tous beys ont été tués, beaucoup de bagages ont été enlevés. On attend avec beaucoup d'impatience les nouvelles officielles; mais tout annonce que bientôt les restes de l'armée de Mourad-bey, et de celle d'Ibrahym, seront entièrement dispersés; et l'Égypte sera alors assurée de ne plus retomber sous le joug de ces odieux oppresseurs, qui trop long-temps dévastèrent ce beau pays.

En même temps que l'on s'occupe avec activité d'organiser toutes les parties de

II. Ce [illegible] sera payé par moitié, en deux [illegible], le premier dans le courant de Frimaire, le second dans le courant de [illegible] [illegible]

III. L'administrateur des finances nommera six architectes du pays, dont quatre pour le Caire, un pour Boulac et un pour le vieux Caire, qui seront chargés de classer les maisons d'après leur valeur et conformément à la division établie dans l'article précédent.

IV. Ils parcourreront à cet effet toutes les [illegible] escortés de deux soldats Français et de deux soldats Turcs, et d'après l'inspection de l'extérieur de chaque maison, ou autre édifice, ils les marqueront du n.° de la classe dans laquelle ils jugeront qu'ils doivent être rangés.

V. Les architectes devront avoir terminé leurs opérations, dans les huit jours de leurs nominations.

VI. Le recouvrement du droit d'enregistrement sera fait par des écrivains cophtes; entre lesquels seront partagés les divers quartiers du Caire, chacun deux se fera accompagner du chef de la rue, et il sera escorté de deux soldats Turcs, et de deux soldats Français.

VII. Les écrivains cophtes, commenceront leur perception, en même temps que les architectes commenceront leur visite.

VIII. Ils remettront à chaque propriétaire une quittance imprimée de la somme qu'il aura perçue, et qui servira en même temps de titre de propriété, ils devront [illegible] au double de cette quittance après l'avoir rempli des noms du propriétaire, de la nature de la propriété, du numéro qu'elle portera, de la rue, du quartier où elle sera située et de la somme payée.

La suite au prochain n°.

Avis Divers.

Le citoyen Boulangier, garde magasin des vivres, au Caire, prévient ses concitoyens qu'il a perdu dans la matinée du 27, quatre billets pliés les uns dans les autres, l'un de 3000 parats, et les trois autres de 1500, à 30 jours de vu sur la monnoie, il prie les citoyens entre les mains desquels lesdits billets ont tombés, de vouloir bien les remettre au magasin de vivres-pain, au Caire. Ils sont écrits moitié en Arabe et moitié Français.

— Le citoyen Baudeuf prévient les citoyens que le tirage de la montre qui devoit se faire le 27 vendémiaire, a été renvoyé au 10 Brumaire, vu qu'il reste encore beaucoup de billets à prendre.

— Le second n.° de la décade Egyptienne paraitra aujourd'hui [illegible], l'abonnement pour douze n.os, est de dix livres argent de France, le bureau est à l'adresse ci-dessous.

Le citoyen Marc AUREL, prévient ses concitoyens que le prix de [illegible] courier est de Six medins, que l'abonnement de trente numeros sera de Cent-cinquante. [illegible] ne recevra aucun abonnement que l'on ne paye d'avance. Il prie les citoyens du dehors qui désireront s'y abonner, d'affranchir leurs lettres et l'argent. On souscrit à l'adresse ci-dessous.

Au Caire, de l'Imprimerie de Marc AUREL, Imprimeur de l'Armée ; au quartier des français.

COURRIER DE L'EGYPTE

N.° 14.

10 Brumaire VIIe. année de la République.

ADMINISTRATION.

Suite de l'arrêté du Général en chef.

IX. L'administration de l'enregistrement fera imprimer un nombre de quittances suffisantes d'après le modèle qui lui sera envoyé par l'administration général des finances, elle les signera et en remettra à chaque écrivain la quantité qui lui sera nécessaire, d'après l'arrondissement dont il sera chargé.

X. Chaque jour les percepteurs devront verser dans la caisse de l'enregistrement, les sommes qu'ils auront recouvrées et en retireront un reçu, il leur est défendu de retenir aucune somme par devers eux.

XI. Ils remettront aussi tous les jours à l'administration les doubles des quittances qu'ils auront délivrées.

XII. L'administration fera successivement enregistrer toutes les quittances sur un registre [illegible]

XIII. [illegible]

XIV. [illegible]

XV. Les écrivains Cophtes devront avoir terminé le recouvrement dans deux mois, à dater du jour où ils l'auront commencé.

XVI. Les maisons et fondations affectées aux mosquées et aux œuvres pies, sont assujeties comme les autres aux dispositions du présent arrêté, les mosquées seules en sont exemptes.

XVII. Le droit d'enregistrement établi par l'article premier, sera perçu dans les villes d'Alexandrie, Rosette, Fouä et Damiette, mais la quotité en est réduite à moitié pour ces villes, en conséquence tout autre contribution cessera d'avoir son effet, et ce qui auroit été perçu de ces contributions, sera déduit dans le payement du présent droit d'enregistrement.

XVIII. Le présent arrêté servira de règle pour en déterminer la proportion et en faire le recouvrement.

Signé, BONAPARTE.

NOUVELLES.

Traduction d'une circulaire adressée par les [illegible] de la ville du Caire, aux habitans des provinces.

Nous supplions le tout-puissant de vous préserver de la [illegible] et du désordre [illegible], et de nous éloigner de ceux qui [illegible] le mal sur la terre.

Savoir [illegible], aux habitant de la province

L'Amiral Villeneuve, avec ce qu'il a rallié de notre escadre, a fait voile vers Malte où il se joindra à notre escadre de Toulon et aux trois vaisseaux qu'il trouvera dans ce port.

Nous avons ici dix bâtimens de guerre ou frégates dont on complette les équipages, et qui sont dans le meilleur état.

On a travaillé avec une telle activité aux fortifications de la place, qu'elle est à l'abri, soit par terre soit par mer, de toute espèce d'attaque.

Cinquante pièces de canon de 24 avec 7 à 8 grilles à boulets rouge, et plus de 20 mortiers défendent les différentes branches du port; on a couronné du côté de terre toutes les monticules de l'enceinte des Arabes, d'ouvrages, faits avec autant de soin que d'art, et défendus par plus de 80 pièces de campagne: cette activité offre un spectacle bien nouveau pour les habitans du pays.

Quant aux subsistances, les magasins sont déjà fournis pour nourrir l'armée pendant plus d'un an.

Le général Kleber n'est pas encore guéri de sa blessure.

Damiette. On est ici extrêmement content de la conduite des troupes françaises. On travaille avec la plus grande activité pour mettre en défense l'embouchure du Nil. Plusieurs pièces de 36 et mortiers de 12 pouces sont déjà à cet effet partis du Kaire.

Saint-Jean d'Acre, 20 Juillet. A la première nouvelle de l'arrivée des Français à Alexandrie, nous avons été extrêmement alarmés. On avait publié qu'ils avaient massacré tous les Musulmans, détruit toutes les mosquées, et emmené à Malte en esclavage le reste de la population.

Mais depuis que nous avons lu leurs proclamations, et que nous savons que non seulement ils protègent la religion musulmane, mais encore qu'ils l'aiment et la préfèrent aux dogmes de la religion chrétienne, nos craintes se sont dissipées. S'ils protègent la religion, et qu'ils ne viennent que pour détruire les tyrans, que dieu accompagne leurs armes.

KAIRE.

Relation de la fête du Nil, le 1.er fructidor an 6 de la République (1213 de l'Egire).

Le Général en Chef, accompagné de tous les généraux, de l'état major de l'armée, du Kykhaya, du Pachà, du Divan, du Mollâ, de l'Aghâ des Janissaires, s'est rendu à 6 heures du matin au Meqyâs. Un peuple immense couronnait toutes les monticules qui bordent le Nil et le canal.

Toute la flottille pavoisée et une partie de la garnison sous les armes formaient un coup d'œil aussi grand, aussi imposant qu'agréable; l'arrivée du cortège au Meqyâs fut marquée par plusieurs salves; la musique, française et arabe, jouait plusieurs airs pendant le temps que l'on travaillait à la coupée de la digue.

Un instant après le Nil franchit la digue, et entra comme un torrent dans le canal d'où il porte la fertilité dans la campagne du Kaire.

Le Général jeta plusieurs milliers de médins au peuple, et beaucoup de pièces d'or au bateau qui passa; il revêtit de la pelisse noire le Mollâ, et le Naqyb-el-Achraf de la pelisse blanche, et il fit distribuer 38 caftans aux principaux officiers. Ensuite tout le cortège retourna sur la place Ezbekyeh, suivi par un peuple immense qui chantait les louanges du prophète et de l'armée française, en maudissant les beys et leur tyrannie. Oui, disaient-ils, vous êtes venus nous délivrer par l'ordre de Dieu miséricordieux; car vous avez pour vous la victoire et le plus beau Nil qu'il y ait eu depuis un siècle: ce sont deux bienfaits que Dieu seul peut accorder.

On a célébré tous ces jours-ci avec la plus grande pompe la fête de la naissance du Prophète. Depuis le 2 jusqu'au 6, la maison du Général en Chef, celles du général Dupuis et du cheykh el-Bekry étaient illuminées. Les nuits, à dix heures, des processions de fidèles vinrent chanter les louanges du Prophète, et faire des danses aux flambeaux. Hier à huit heures du soir, après avoir fait une parade extraordinaire d'une partie de la garnison, les officiers français de l'état-major et de la garnison, précédés d'une grande quantité de flambeaux et d'une musique militaire, se sont rendus chez le cheykh el-Bekry. Des décharges d'artillerie ont annoncé le départ et l'arrivée.

Après avoir assisté à un magnifique soupé servi selon l'usage du pays, le Général en Chef est retourné à son logement; on a commencé à tirer un feu d'artifice fait par les artificiers du pays, qui a parfaitement réussi.

Le matin, le Général en Chef avait revêtu le cheykh el-Bekry, en présence de tout le divan, de la pelisse d'hermine, en lui conservant la place de Naqyb el-Achraf, vacante par l'émigration d'Omar Effendy qui l'occupait auparavant.

FRANCE.

L'intérieur de la République jouit de la tranquilité; le nouveau corps législatif commence sa carrière sous d'assez heureux auspices, l'esprit Républicain semble y avoir une prépondérance très-marquée, et rien jusqu'à présent n'y fait entrevoir le germe des dissensions qui ont tourmenté les législatures précédentes. Le corps législatif parait sur-tout décidé à s'occuper avec suite et attention du perfectionnement des lois civiles et de celles qui concernent l'administration; il existe dans ces dernières principalement un grand nombre de lacunes et d'indécisions auxquelles les assemblées n'ont jamais voulu remédier, quelques instances qu'on leur ait faites: ces assemblées ont presque toujours eu le malheur d'être dominées par des hommes qui affectaient de confondre l'administration avec le gouvernement. Cette confusion permet aux uns de citer chaque erreur de l'administration comme un argument contre la forme républicaine; les autres sous prétexte de défendre le gouvernement, soutiennent les fautes et même les prévarications des administrateurs. Les Républicains sincères sont tous voués au maintien du gouvernement; ils y sacrifieraient leurs vies: mais ils sont des premiers à censurer et à redresser l'administration lorsqu'elle s'égare.

Les conférences de Rastadt continuent; Treilhard y a été remplacé par Jean-Debry. Il s'est établi un autre centre de négociations à Seltz dans le département du bas-Rhin; François de Neufchateau, représente la France, et le comte de Cobentzel la maison d'Autriche: l'affaire de Bernadote est l'objet apparent de cette négociation; mais les spéculateurs politiques prétendent qu'elle aura une grande influence sur le résultat du congres de Rastadt.

On dit que la cour de Berlin ayant été sollicitée de rentrer dans la nouvelle coalition, s'y est refusée; cette cour ne parait pas décidée à consentir à la démolition de la forteresse d'Ehrenbreistein, dont la France a fait la demande.

Le commodore anglais Strachan a essayé pendant la seconde et la dernière décade de prairial, de jeter quelques bombes dans la ville du Havre; la crainte de nos batteries de terre l'a toujours retenu hors de portée, et ses bombes n'ont fait aucun mal. Le 18 prairial, il a dirigé son attaque sur la baie de L[illegible]; elle n'a pas eu de succès; les batteries

المؤلف

- **د. مصطفى عبد الغنى**

- ولد في القاهرة عام ١٩٤٧
- رئيس القسم الثقافى بالأهرام والأهرام الدولى .
- عضو العديد من المؤسسات الثقافية فى الوطن العربى منها لجنة الدراسات الأدبية بالمجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة .
- المستشار الثقافى لمجلة (بريزم) بوزارة الثقافة .
- حصل على أطروحة الماجستير عن (طه حسين ودوره السياسى) ثم على أطروحة الدكتوراة فى فرع التاريخ الحديث والمعاصر ؛ وكان عنوان أطروحته (المثقفون وعبد الناصر ١٩٤٥ - ١٩٦٨) .
- شارك فى مؤتمرات وندوات عديدة حصل منها على جوائز من جهات ثقافية مصرية وعربية .
- كتب مشروعه الفكرى فى عديد من المجالات : فكتب فى التاريخ والفكر والسياسة والتراجم والدراسات المقارنة والإبداع المسرحى والنقد الأدبى ونقد النقد حتى حصل على جائزة الدولة التقديرية فى مصر فى (النقد الأدبى) ؛ ووصلت أعماله إلى حوالى أربعين كتاباً .
- درست أعماله فى جامعات غربية ، فسعت (جامعة السوربون) بفرنسا - على سبيل المثال - إلى تدريس كتاباته عن الفكر السياسى على يد الأستاذ جاك برك (بجامعة السوربون) فى الثمانينيات ، وقررت على طلبة الدراسات العليا هناك .
- له العديد من المقالات والدراسات الهامة فى عديد من الدوريات العربية منها : عالم الفكر ، والمستقبل العربى ، الناقد ، فصول ، القاهرة ، البيان .. إلى غير ذلك .
- كذلك حصل على العديد من الجوائز العلمية منها : جائزة وزارة الثقافة المصرية عام ١٩٨٢ ، ونقابة الصحفيين المصريين ١٩٨٧ ، والمجلس الأعلى للثقافة فى النقد عام ١٩٩٦ ، وجائزة الدولة التشجيعية فى النقد الأدبى عام ١٩٩٧ .. إلى غير ذلك .

- **نقد أدبى :**

- الاتجاه القومى فى الرواية : (سلسلة عالم المعرفة) الكويت ١٩٩٤ .
(حصل على جائزة الدولة التشجيعية للنقد الأدبى ١٩٩٧)
: الطبعة الثانية ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٩

- نجيب محفوظ، الثورة والتصوف : هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٩٤ .
- الشرقاوى متمردا : دار التعاون، القاهرة ١٩٨٧ .
- قضايا الرواية العربية فى نهاية القرن العشرين : المكتبة المصرية اللبنانية، القاهرة ١٩٩٩ .
- نقاد الرواية فى نهاية القرن العشرين : الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠١ .
- نقد الذات فى الرواية الفلسطينية : دار سينا، القاهرة ١٩٩٤ .
- الغيم والمطر، الرواية الفلسطينية من النكبة إلى الانتفاضة : القاهرة ٢٠٠١ .
- البنية الشعرية عند فاروق شوشة : هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٩٢ .
- عنصر المكان فى شعر أبو سنة : هيئة قصور الثقافة، القاهرة ١٩٩٣ .
- زكى نجيب محمود : سلسلة نقاد الأدب، هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٩٢ .
- الخروج من التاريخ -- دراسة فى (مدن الملح) لعبد الرحمن منيف : هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٩٣ .
- المسرح المصرى فى السبعينيات «ج١» : الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٨ .
- المسرح المصرى فى الثمانينيات «ج٢» : الطبعة الأولى، دار الوفاء، القاهرة ١٩٨٤ .
: الطبعة الثانية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٥ .
- فى دائرة النقد : المجلس الأعلى للآداب ١٩٨٤ .

- **أعمال فكرية :**

- طه حسين والسياسة : دار المستقبل العربى، ج١، القاهرة ١٩٧٦ .
- تحولات طه حسين : هيئة الكتاب، ج٢، القاهرة ١٩٩٠ .
- طه حسين وثورة يوليو : ج٣، القاهرة ١٩٨٩ .
- المفكر والأمير (العلاقة بين طه حسين والسلطة ١٩١٩ / ١٩٧٣) : هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٩٧ .
- المثقفون وعبد الناصر : دار سعاد الصباح، القاهرة ١٩٩٢ .
: مكتبة غريب، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٩٩ .
- مثقفون وجواسيس : دراسة فى أزمة الخليج، دار الأمين، القاهرة ١٩٩٧ .
- المثقف العربى والعولمة : مهرجان القراءة للجميع، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٠ .
- شهرزاد فى الفكر العربى الحديث : الطبعة الأولى، دار الشروق، القاهرة ١٩٨٥ .
- الجات والتبعية الثقافية : مركز الحضارة العربية، ١٩٩٨ .
: الطبعة الثانية، مهرجان القراءة للجميع، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٩ .
- الذاكرة المثقوبة - نهب وثائق العرب، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٩ .

- تيارات الفكر المصرى الحديث، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٩ .
- مستقبل الجامعة فى مصر : د. ت.

- **تاريخ حديث ومعاصر :**

- الجبرتى والغرب «دراسة حضارية مقارنة» : هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٩٥ .
- الدور الأمريكى فى اغتيال حسن البنا : مدبولى الصغير، القاهرة ٢٠٠١ .
- مؤرخو الجزيرة العربية فى العصر الحديث : دار الموقف العربى، القاهرة ١٩٨٠ .
- المؤثرات الفكرية فى الثورة العرابية : هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٨٢ .
- حقيقة الغرب : بين الحملة الفرنسية والحملة الأمريكية : مركز الحضارة العربية، القاهرة ٢٠٠١ .

- **إبداع مسرحى :**

- الحصار : مسرح شعرى، هيئة الكتاب ١٩٨٤ .
- الخروج من المدينة : مسرح شعرى، الثقافة الجماهيرية ١٩٩٥ .
- اللاعب : مسرح شعرى، هيئة الكتاب ١٩٩٦ .

- **أدب الرحلة :**

- الرحلة إلى الله .
- الشرق شرق والغرب غرب .

- **تراجم :**

- أحمد بهاء الدين - سيرة قومية : دار هلا، القاهرة ١٩٩٦ .
(حصل على جائزة أحسن كتاب عن عام ١٩٩٦) بمعرض القاهرة الدولى للكتاب
- اعترافات عبد الرحمن الشرقاوى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٦ .
- عمالقة وعواصف : دار الجاد، القاهرة ١٩٩٨ .

- **الترجمة :**

- الوداع : ترجمة آخر أشعار أراجون : هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٨٦ .

- **سيرة ذاتية :**

قبل أن يأتى الزهايمر : ترجمة ذاتية .

- **معاجم :**

- معجم مصطلحات التاريخ العربى الحديث والمعاصر .

الفهرس

رقم الإيداع : ٢٠٠١/١١٦٤٠
الترقيم الدولى : I.S.B.N.977-01-7333-9